سلسلة كتاب الجيب

# روعة الحب

A - 103

١٠٣ - ١



# روعة الحب

كانت الليدي مارسيا وود، ابنة ايرل غريتسوود، الجميلة والقوية الإرادة والتصميم ترفض الزواج من آرموند، دوق روس. الأمر الذي كان يتمناه والدها. لكنها حين ارغمت على اللقاء به، اكتشفت انه يبادلها الاصرار على رفض فكرة الزواج مجدداً، بما انه قد خدع بزيجته الأولى من امرأة عرف لاحقا انها مجنونة. ولدى علمه ان مارسيا لا ترغب بالزواج منه، اصبحا صديقين، لتدرك مارسيا ان صداقتهما قد تحولت إلى حب حين وجدت نفسها تهرع إلى انقاذه بعد ان تم اختطافه.

# الفصل الأول

## عام ١٨٧٦

ما ان بدأت مجموعة من السيدات الأشراف بالثرثرة والنظر إلى بعضهن البعض، حتى علم ان الليدي مارسياوود قد دخلت إلى القاعة، فتقول احدى السيدات بهمس: «هل سمعتن آخر الاخبار؟ يقال ان الليدي قد تحدت للورد ايشستر منفردة في مباراة للفروسية في ريجنتس بارك.»

فعلقت الأخرى بتعجب: «وهزمته! لا بد وان تلك ضربة قاسية للورد، الذي يعتقد ان ما له من منافس!»

«ليس هذا ما يهم. الموضوع هو انها بدأت تتصرف بطريقة لا تليق بها واظنني ساكلم والدها في هذا الشأن.»

«لا اعتقد انه سيصغي لكلمة ستقولينها. فهو شديد الولع بابنته الوحيدة، كذلك له الحق في ان يحبها إلى هذا الحد فهي جميلة جداً!»

لكن يبدو ان ذلك لم يعجب بعض السيدات، اذ بدا التذمر جلياً على وجوههن.

مع ان ذلك لا يعني انهن لا توافقن على حقيقة كونها فاتنة.

وفيما هي تقف امام باب القاعة مترددة قلقة وكأنها تبحث عن احد ما، كانت أضواء الشموع في الثريات الفخمة تتلألأ في عينيها لتجعل منهما نجمتان تضيئان المكان.

ذلك لأن جمالها يختلف عن جمال من هن في مثل عمرها.

إذ ان الفتيات خلال ربيعهن الاول تنتقدن الكياسة ولا تحسنن الكلام، اضافة إلى خجلهن الشديد.

اما بالنسبة لمارسيا، الأمر مختلف. فقد ترعرعت مع والدها، ايرل غريتسوود، الذي علمها كيف تثبت وجودها وتعبر عن نفسها.

فهي بالنسبة له الأبن والابنه، لانه بعد ولادتها، اصبح يستحيل على والدتها انجاب المزيد من الأطفال، وهذا ما جعل الايرل يبذل كل ما بوسعه، رغم ان الأمر كان بالنسبة له، في غاية السوء، ومرد ذلك إلى ان المعاملة التي كانت تتلقاها مارسيا منذ ان بدأت بالمشي هي معاملة تناسب فتى وليس فتاة.

فلقد أشركها والدها في كل اعماله ونشاطاته، علمها الفروسية والرماية. الأمر الذي جعلها تصبح حديث الناس الأوحد في لندن، وتحديداً بعد ما قامت به في قصر باكينغهام، حيث كانت تقوم بأداء جولات على احدى خيول والدها المميزة جعلت جموع من الرجال يتمنون منافستها. رغم كونهم يقومون بمرافقتها باستمرار، وعندما تشعر مارسيا برغبة في التملص منهم، كانت تنطلق على حصانها بسرعة جنونية.

وتتوجه إلى شمال الفسحة، الأمر الذي لم يكن جد مقبول،



اذ ان الآنسات الاشراف، مثلها، يتجولن على خيولهن بهدوء، ولم تعد احداهن ابداً. ومما لا شك فيه ان الليدي مارسيا كانت تعدو في أي اتجاه شاءت. مما أثار الظن بأنه ما من احد يمكنه السيطرة عليها.

وما أن مرت لحظات قليلة على دخولها إلى القاعة، حتى تقدم ما يزيد على الست نبلاء يطلبن الجلوس معها. لكنها راوغتهم قليلاً، لتختار في نهاية الأمر دوق باكسيتد مرافقاً لها.

راحت السيدات الأشراف يتأملن الليدي والدوق وهما يتحادثان وهن متنهدات من الحسد والغيظ.

لتقول احداهن: «اعتقد انها ستقبل الارتباط بالدوق، فهي، رغم كل شيء، لن تحصل على من هو أحسن منه.»

فعلقت سيدة أخرى: «يقال انه مجنون بحبها.»

فتقول أخرى: «كما هو الحال مع كثير غيره. لكنها تصدهم جميعاً.»

فقالت أخرى حانقة: «إذا ما استمرت هكذا، فسينتهي الأمر بها عانساً.»

ولم يعلق احد على ما قيل. وقد بدا جلياً أنه طالما الليدي مارسيا تبدو رائعة كما هي الليلة، فانه من الصعب ان تبقى عزباء لفترة اطول بعد.

فمنذ ان ظهرت لأول مرة في لندن وهي حديث الناس. ولم يكن الملفت للنظر هو جمالها فقط، بل أيضاً طريقة تصرفها. فقد كانت تتمتع بحياتها بطريقة مختلفة ومميزة. إضافة إلى كونها مهذبة وتحب التجديد. ولانها كانت ترفض كل من يتقدم لطلب يدها للزواج فقد اعتقد انها تتوقع

تقدم من هو افضل من الشخص الذي قدم لها قلبه وبالطبع، لقبه!

ورغم الجدل الذي كان يثيره ذلك بين الأب وابنته، الا انه كان جلياً ان احداً منهما لم يكن يصغي للآخر.

وبما ان الايرل كان والدها ورجلاً شديد الثراء، فقد كانت كل العلاقات منوطة به، مما لم يتح المجال للعديد من الاشخاص القيام بأي شيء حيال ذلك.

بعد مرور بعض الوقت، خرجا تماماً كما يفعل معظمهم، إلى الحديقة.

ومما هو معروف ان حديقة منزل دوفنشاير هي ملتقى للاصدقاء، ويشاع ان معظم الزيجات قد تم الاتفاق عليها تحت فيء اشجار تلك الحديقة اكثر من أي مكان في لندن.

ومما لا شك فيه أن جو الليلة كان رائعاً. فقد كانت الاشجار تمتد تحت اضواء خافتة معلقة.

وكانت هذه الأجواء تتوقف عند النقطة التي يتحول فيه السير إلى باركلي سكوير حيث الظلام يخيم على المكان وليس هناك سوء ضوء القمر.

اخذت مارسيا تتمشى على الحشيش الأخضر الناعم الملمس متوجهة نحو نافورة الماء التي لطالما كانت تحبها.

وفي نفس الوقت كانت تفكر في النافورة التي كانت قد طلبت من والدها ان يضعها في حديقة القصر. اذ انها ستضفي جواً من الروعة على المكان وخصوصاً ان احاطت بها اشجار مشجذبة بطريقة جميلة وفنية.

وطلبت مارسيا ذلك لكونه العلامة الفارقة التي ميزت



حديقة الايرل الأول في عهد الملك تشارلز الثاني.

سأل الدوق بنفاد صبر: «لم اسمع منك رداً، يا مارسيا.»

لكنها نسيت وجوده اساساً، وما جعلها تعود إلى واقع كونها معه هو صوته.

فأجابت: «انا آسفة يا جورج. لم اكن اصغي لما تقوله. ماذا كنت تقول؟»

«لقد كررت الطلب نفسه الذي سبق وطلبته منك. الطلب الذي لم اتلقَ عليه منك أي رد مباشر. أريد الزواج منك. أنا واثق من انني سأجعلك سعيدة.»

فحولت مارسيا نظرها عنه مجدداً وحدقت بالنافورة.

كم كانت دهشتها لدى سماعها طلب الدوق يدها للزواج في هذا المكان. رغم ادراكها ويقينها التام بانها لن تتمكن من ان تسمعه ما يرغب سماعه.

«لا جدوى من ذلك يا جورج، فانت تعلم انني لن اتزوج إلى ان اغرم. وانا لا احبك.»

فسأل بعصبية: «ولماذا لا تحبينني؟»

فقد مضى على محاولة والدته الملحاحة له للزواج منذ ان كان في الثامنة والعشرين من عمره. لذلك فانه لم يتقبل رفض مارسيا لطلبه بعد ان قرر هو الزواج. وراح يتساءل عن السبب الذي جعل مارسيا الفتاة الوحيدة التي ترفضه.

فقال: «انت لا تعرفين شيئاً عن الحب سوى ما قرأته في بعض الروايات أو حلمت به حين كنت مراهقة.»

«وما الضير في ذلك؟»

«انه غير واقعي. فانت تعرفين تماماً كما انا اعرف، مارسيا، انك ستكونين دوقة رائعة.»

فنظرت مارسيا اليه وقالت: «انا اتزوج من دوق؟»

فقال مردداً كلماتها: «وما الضير في ذلك؟»

وهو على يقين تام من انه اكثر الرجال اناقة والأكثر وسامة كذلك. مما جعل ثلاثة من عمالقة الفن يرسمون صورته. وقد علقت الصور في قصر باكستيد لكي تكون على مرأى من نظر الجميع.

«دعنا نتحدث في موضوع آخر. لقد كان أداء خيلك في آسكوت البارحة رائعاً. من المؤسف انه لم يفز.»

«لقد كانت غلطة الفارس. لذلك صرفته. وعندما يشترك شامبيون في المرة المقبلة، فانه سيفوز بالمرتبة الأولى.»

فابتسمت مارسيا لسماعها نبرة التصميم في صوته وهو يتابع: «هذا ما انوي فعله. دعينا لا نناقش الأمر اكثر من ذلك! ستتزوجين مني وسنعلن خطوبتنا الاسبوع القادم.»

«لن نفعل شيئاً من هذا القبيل، لقد سبق وقلت لك انني احترمك كصديق ولا أرغب بك زوجاً لي.»

ابتعدت عنه قليلاً مما تسبب في إخلال توازنه، فانزلقت قدماه ووقع في حوض الماء. فأخذ يتمتم بكلمات لم تتوقف مارسيا لتسمعها أو حتى لتنظر إلى شكله بعد ان تبلل.

واختفت بين الاشجار لتعود إلى داخل القصر من طريق تختلف عن التي اتيا منها.

وفيما هي في طريق العودة إلى المنزل مع والدها مؤخراً في الليلة ذاتها وفي عربة والدها الفخمة والمريحة. سألها والدها: «ما جرى بينك وبين باكستيد



من حديث؟ لقد رأيتك برفقته بعد وصولنا بقليل، ليختفي بعد ذلك.»

لم تجب، فعاد والدها يقول: «لا تقولي لي بانه طلبك للزواج وانت رفضت.»

«لقد طلب ذلك مني اكثر من ست مرات، وأجل، يا أبي، لقد رفضت.»

لكنه عاد وسألها بنفاد صبر: «لقد رفضت باكستيد! لكن لماذا؟ انت لن تحصلي على من هو افضل منه، يا ابنتي. فهو اغنى دوق في انكلترا.»

«انت تعرف الجواب، يا أبي.»

وكان الايرل على وشك ان يتابع الحديث حيث توقفت الجياد امام منزلهم الرائع. فقد اعاد تصميم اجزاء كبيرة منه في العام المنصرم، قبل ان تظهر مارسيا في المجتمع، وذلك لانه لم يكن يرغب في قضاء أي من العطلات في لندن. كذلك لانه بدا واضحاً ان جمال مارسيا ونسبها سيجعلها محبوبة من الجميع. حتى ان كل رجل أعزب ثري ووسيم فكر في الزواج، تقدم لطلب يدها. غير ان رفضها لكل من تقدم للزواج منها أثار حنق سيدات المجتمع والمحطين بها من أقرباء ومعارف واصدقاء.

وعند تقدم الدوق باكستيد للزواج منها، اعتقد ان ابنته كانت على صواب حين تروت في اختيار شريك حياتها. فهو، كما قد سبق وقال، اغنى دوق في انكلترا، وكان احد اهم الشخصيات في البلد وعلى علاقة طيبة مع رئيس الوزراء وعدد من رجال الدولة.

وستكون زوجته حسب التقاليد، وصيفة أولى للملكة فيكتوريا.

واكثر ما اعجب والد مارسيا بدوق باكستيد هو انه يملك اسطبل خيل مميز كالذي يملكه. لانه اعتقد إذا ما تم تزويج الخيول بين الاسطبلين، فانهما سيتمكنان من الاضافة إلى إذاعة الصيت التي تتمتع بها الخيول الانكليزية.

وعندما تقدم أحد الخدم وفتح باب العربة، نزل والد مارسيا وقال: «اريد التحدث اليك، يا مارسيا. لذلك دعينا ندخل إلى مكتبي.»

لم تعلق بأي كلمة. كل ما فعلته هو أن دخلت المنزل واعطت سترة السهرة خاصتها لأحد الخدم. وبعد ان نظرت إلى السلم المؤدي إلى غرفتها، تبعت والدها عبر الردهة ليدخلا إلى غرفة المكتب التي كانت تمتاز بطابع رجولي.

ولقد أمضت مارسيا الكثير من الوقت في هذه الغرفة حين كانا في لندن، وذلك لانها تحتوي على عدد كبير من الرفوف المليئة بالكتب.

هذا رغم وجود مكتبة ضخمة في منطقة وودهول في وسط البلد الأمر الذي كانت تهتم به مارسيا لانها كانت تشعر بنقص شيء مهم في حياتها ان لم يكن لديها كتب تقرأها في أي مكان كانت.

كانت الشموع مضاءة في ثريا مكتب الايرل، وبعد ان دخلا المكتب، ظل كبير الخدم منتظراً عند الباب في حال كان لاحدهما أي طلبات. لكن الايرل قال: «شكراً لك باولز. ليس لدينا أي طلبات.»



«عمت مساء، يا سيدي.»

تراجع الخادم واقفل الباب وانصرف.

تثاءبت مارسيا وقالت: «ان الوقت متأخر جداً، يا والدي، لكي استمع إلى احدى محاضراتك. انا اعرف انك مستاء لانني رفضت الزواج من جورج، لكن لا يمكنني فعل شيء حيال ذلك.»

«ماذا تعنين بقولك هذا الكلام؟ لقد سبق وقلت لك ليس هناك من عرض افضل بالنسبة اليك. بالاضافة إلى ان خيوله هي من افضل الخيول واجودها.»

«انا اوافقك في كل ما تقوله لكني لسوء الحظ سأتزوج منه وليس من خيوله.»

فضرب الايرل بيده على المكتب بعصبية وقال: «لا تمازحيني، يا مارسيا، بصراحة، عليك ان تتزوجي، واعتقد ان باكستيد يناسبك.»

«وانا اعتقد العكس تماماً، اذاً، ماذا نفعل حيال ذلك؟»

«انا المخطىء في هذا لأنني جعلتك ترفضين الواحد تلو الآخر، ابتداءاً من فيكونت عندما كنت في سن الثامنة عشرة. لانني اعتقدت ذلك غير مناسب في مثل سنك.»

وقفت مارسيا على اطراف اصابعها لتسرق نظرة إلى هيئتها في المرآة المعلقة فوق المدفأة، ولتقول بعد ذلك: «لا استطيع ان افهم لم انت على عجلة من امرك لتتخلص مني. فأنا سعيدة بوجودي معك، وانت تعرف ان لدينا الكثير من الأمور المشتركة.»

هدأ الايرل لدى سماعه هذه الكلمات وعلق بالقول: «وأنا أحب وجودك معي. لكنك تدركين تماماً مدى اهمية زواجك

لتتخلصي من كلام تلك الثرثارات المسنات الشريرات اللواتي سيغتنمن الفرصة ليقولن انني احول ربيعك إلى خريف بابقائك معي في المنزل.»

فضحكت مارسيا بصوت عالٍ، وقالت: «بالطبع سيقولون ذلك، يا أبي. لكن هل لذلك أية أهمية؟ كل ما هنالك هو انهن يشعرن بالغيرة لانني ابنتك، وغاضبات لانك لم تتزوج ثانية بعد وفاة والدتي.»

عمت لحظات من الصمت قبل ان يستأنف الايرل حديثه قائلاً: «انت تعرفين كم انا افتقد والدتك. ويبدو لي مستحيلاً ان أجد من قد يحل محلها.»

«أجابته باسمة: «أجل، اعرف ذلك. وهذا هو سبب اهتمامي بك بهذه الطريقة، تماماً كما تحب والدتي ان افعل، وسيصبح ذلك صعباً إذا ما تزوجت فيكون علي الاهتمام بك وبزوجي.»

انتصب الايرل واقفاً وقال: «لطالما تمكنت من السيطرة علي بكلماتك. لكنك تدركين تماماً انه عليك ان تتزوجي ومن الطبيعي، في عائلة مثل عائلتنا، ان يختار والدك زوجاً لك وان توافقي عليه وتتقبلي كوني اكثر قدرة على رؤية الأفضل منك انت.»

فضحكت وقالت: «آه، يا والدي، لا تبدأ بذلك الهراء ثانية. لقد سبق لي وان سمعته من قبل. رغم انك وافقت معي على ان الزيجات المدبرة هي من الأمور غير الحضارية وانها تؤدي إلى كارثة مباشرة.»

فعلق باحتجاج: «انا لم اقل شيئاً من هذا القبيل.»

تابعت دون توقف: «واقسمت انك لن ترغمني على الزواج





من رجل لا احبه لانك اغرمت بوالدتي من اللحظة الأولى للقائكما.»

«ذلك إذا بقيت الأمور ضمن المعقول. لكن الأمور تجاوزت الحد. فأنت لم تخبريني ان باكستيد قد طلب منك الزواج من قبل. وقد عرفت ذلك للتو، وسيكون عليك اعلامه بموافقتك ولن نتناقش في الأمر بعد الآن.»

ابتسمت ابتسامة خبيثة وقالت: «لا اعتقد ان جورج سيحاول تكرار طلبه مجدداً بعدما حصل هذا المساء.»

«ماذا حصل؟»

«اسقطته في حوض الماء.»

«ماذ فعلت؟ هل يجب عليك دائماً القيام باعمال هوجاء.»

«ما كان عليه ان يقترب مني.»

«إذاً، سيدهشني تكرار محاولته معك ثانية بعد تصرفك معه بهذه الطريقة.»

«لم اكن اقصد ذلك فعلاً، كنت فقط احمي... نفسي... منه فانزلقت قدماه...»

«انا اعرف ما فعلته تماماً، لقد استخدمت تلك الحيلة التي اصريت على تعلمها. لطالما ايقنت ان الأمر سينتهي بمشكلة.»

فقالت باحتجاج: «لكن ما من احد يعلم ذلك غيرك اذ ان الأمر سيبدو مخزياً بالنسبة لجورج حتى يعترف بان امرأة قد فعلت هذا به. لكنني اختفيت بسرعة، حتى إذا ما رآه احدهم، فانه سيظن ان جورج قد ألمّ به الدوار وسقط في الماء.»

«ليس هناك من رجاء فيك. لا أعلم كيف يجب ان اتصرف معك!»

اقتربت مارسيا منه وقالت: «فقط اقبلني كما انا.»

فرد مؤكداً: «هذا ما لن افعله في الواقع، خطر لي الآن حل لهذه المشكلة، والتي هي انت.»

«اشك في ذلك. وهل يجب علي ان اسمع الحل الليلة. فانا بحاجة إلى النوم.»

«وأنا أيضاً. لقد اجبرتني على اظهار ما كنت اخفيه من نوايا. حاولي الاستفادة مما ساعرضه عليك.»

«ماذا تعني بذلك؟»

فجلس الايرل على احدى المقاعد وقال: «لقد وصلتني رسالة من فرنسا اليوم وانا اجدها مثيرة. في الحقيقة، هناك رسالتان. لكنني لم اكن انوي الربط بين هاتين الرسالتين وبينك حتى هذه الساعة حين اخبرتني انك اهنت رجلاً مهماً ورفضت الزواج منه، فأنت جعلت منه اضحوكة أيضاً، الأمر الذي لن يغفره لك بتاتاً.»

فهزت مارسيا كتفيها لا مبالية وقالت: «لقد قلت لك انني آسفة. وانني لم اسقطه في حوض الماء عمداً. كل ما فعلته هو حماية نفسي.»

فتنهد الايرل بعمق ثم قال: «حسناً، ما جرى قد جرى. ما علينا فعله الآن هو ان نجد اعذاراً لاختفائك عن الساحة الاجتماعية، ومما سيجعل الأمر سهلاً الرسالتين اللتين تلقيتهما من فرنسا.»

«من المرسل؟»

«الرسالة الأولى من دوق روس، يطلب فيها مني



الحضور لطرفه في أسرع وقت ممكن لالقي نظرة على عدد من خيوله يعتقد انها ستعجبني كثيراً.»

فهمت مارسيا قصد والدها. فالدوق يمتلك افضل اسطبل للخيول. وقد سبق لهما ان تشاورا في أمور تتعلق بتربية هذه الخيول. وكذلك فقد كانا يفكران بجدية تبادل بعض من هذه الخيول، ومرد هذا إلى ثقتهما بانتاج خيول تكون الأولى والافضل في كلا البلدين، فرنسا وانكلترا. وكما تذكر، فان الدوق متصل بوالدها بقرابة بعيدة، اذ ان جد والدها الاكبر قد تزوج من احدى افراد عائلة روس. ولم تلتق مارسيا الدوق يوماً، لكنها كانت تسمع عنه باستمرار من والدها. ذلك لان والدها هو صديق لوالد الدوق الذي شارك في مباريات للرماية في وود هول حين كانت لاتزال طفلة.

وتعجبت عن السبب الذي جعلها تهتم بذلك، لكنها قررت في نفسها انه من الحكمة ان تذهب بزيارة إلى فرنسا في ظل هذه الظروف.

وفيما هي تفكر في نفسها كان الايرل يقول: «اما الرسالة الثانية فقد كانت من عمة الدوق، كونتيسة سواسون، التي اخبرتك عنها بانها كانت صديقة لوالدتك عندما كانتا لاتزالا فتاتين يافعتين، والتي التقيتها حين اتت إلى انكلترا في العام الماضي.»

«أجل، اذكر انك قلت عنها انها رائعة وجذابة.»

«تخبرني في رسالتها انها قلقة جداً على ابن اخيها، الدوق، لاسباب معينة لا تريد ان تاتي على ذكرها في

الرسالة، لكنها ستخبرني عنها حين نلتقي، فهي تتوق لان تراه مستقراً ومتزوجاً.»

بدا على وجه مارسيا علامات دهشة لكنها لم تقاطع والدها في حديثه، فتابع قائلاً: «لكن هذا، ولسوء الحظ، ما يرفض القيام به. وبالتالي فإن عائلة روس يائسة من ان يكون لها وريث يحمل لقبه فيتوقف نسب العائلة.»

وفيما هي تصغي، جفلت لانها توقعت ما ستسمعه لاحقاً.

أكمل الايرل حديثه قائلاً بحسم: «لذلك فقد قررت، رغم كون هذا الامر مفاجىء، انك، وبما ان الارستقراطية الانكليزية تبدو غير مناسبة لك. لقد قررت ان تتزوجي دوق روس.»

حدقت به وقالت: «لكنك قلت للتو يا أبي انه اقسم على عدم الزواج من احد.»

«هذا يشبه إلى حد ما قلته انت نفسك. لذلك سيترتب علينا ان نجعلكما ايها العنيدين تغيران رأيكما.»

عادت وحدقت به ثم ضحكت وقالت: «آه، يا أبي، لم اسمع في حياتي قط أمر بهذه، السخافة! كيف يمكنك ان تدبر امراً بناءاً على رسالة وتتوقع ان تنفذ ذلك في الواقع؟»

«كل ما استطيع قوله هو انك تماديت كثيراً في الأمر في التصرف بالأمور كيفما شئت. سأصطحبك إلى فرنسا وارغمك على الزواج بالدوق سواء اعجبك ذلك ام لا.»

«وما قولك اذا لم يعجب ذلك الدوق أيضاً؟»

لدي احساس، رغم امكانية كونه خاطئاً، ان عمته الكونتيسة، قد تتولى امره، فهي جميلة وذكية، واعتقد اننا قد نتمكن من تدبير زيجة قد تكون الاكثر نجاحاً.»



انتصبت مارسيا واقفة وقالت: «لم اسمع في حياتي قط هراء كهذا! انا آسفة يا أبي، انا احبك واحترمك، لكن لا يمكنك ارغامي على القبول بهذا.»

توقفت بانتظار رد ما لكن والدها التزم الصمت فتابعت: «انا واثقة من ان الدوق، اذا كان يشبه بطريقة أو أخرى الشخصيات الفرنسية التي سمعت أو قرأت عنها، فإن لديه العديد من الصديقات اللواتي سيراهن اكثر اناقة، وجمال وضحكة مني.»

فمد الدوق لها ذراعيه وقال: «انت تدركين تماماً انه ليس من اللائق لليدي مثلك ان تتحدث بهذه الطريقة.»

«انه ذنبك انت في ان لا اكون ليدي بمعنى الكلمة! فقد قمت بكل ما قمت به انت، وتمتعت بذلك. الحقيقة يا أبي، هي انني لم اجد رجلاً احبه فسبب ذلك مرده اليك، لانه ما من احد له مثل جاذبيتك، وذكائك وشخصيتك.»

فنظر اليها برقة ثم ضحك وقال: «ايتها الشريرة الصغيرة! انت تحاولين السيطرة علي بكلماتك كالعادة. لكن هذه المرة، يا ابنتي الشقية، فشلت لانك تدركين انه لا يمكنك اهانة رجل مثل باكستيد دون ان يتبع ذلك فضيحة ما. اتعتقدين انه ما من احد رأى أو علم بالامر، لكنني اؤكد لك باحتمال احد أمرين، اما ان يتحدث باكستيد بنفسه عن ذلك، واما ان يكون احد الفضوليين قد استرق النظر عليكما من احدى النوافذ.»

فاعترفت مارسيا في نفسها ان كلام والدها منطقي جداً. فقال والدها بعد تفكير: «اذاً، ما علينا فعله هو انسحاب سريع

من المكان. ولن يكون هناك من سبب أحسن من ادعائي بضرورة التوجه إلى فرنسا لمعاينة خيول الدوق. وإذا ما تجولت غداً صباحاً في الفسحة، الأمر الذي اعتقد انك ستفعلينه، اخبري اصدقاءك انك ستتركينهم لبعض الوقت.»

«وهل ستعتقد انهم سيصدقون انني اريد معاينة الخيول تماماً كما تريد ان تفعل انت؟»

فرد بالحاح: «عليك اقناعهم بذلك. قولي لهم أيضاً انك مدعوة إلى احتفال. فمن المؤكد ان يكون هناك حفلة اثناء وجودنا في فرنسا. إضافة إلى اننا سنحضر اكثر من مباراة للخيل. وسنحاول كل ما بوسعنا لنقوم بكل هذا قبل عودتنا إلى انكلترا.»

توقف قليلاً ثم تابع: «إضافة، بالطبع، إلى اعلانك نبأ زواجك من الدوق.»

«اعتقد انك فقدت صوابك يا والدي، رغم كون ذلك قد يساعدني على صد محاولات جورج المتكررة واللجوجة، اذا ما تحدث إلي ثانية. الأمر الذي سيثير الكثير من الثرثرة ان لم يفعله.»

«هذا افضل ما قلتيه الليلة.»

«سأحاول التفكير بمزيد من الكلام من هذا النوع في طريقنا إلى فرنسا، لكن دعني اوضح لك امراً، وهو انني لن اتزوج من دوق فرنسي يهتم بنسبي اكثر من اهتمامه بي كشخص.»

كان الايرل على وشك الكلام حين قالت: «اذ انه سيفضل التمتع بوقته مع بعض الاصدقاء في باريس بينما ابقى انا في الريف بين المزروعات.»



فضحك الايرل قبل ان يتمكن من السيطرة على نفسه وقال: «لا يمكن لي ان اتخيلك تحرثين الارض أو تقومين بشيء من هذا القبيل، رغم ان الدوق هو دوق، واذا لم يكن باكستيد مناسباً لك، كل ما اتمناه هو الا يتقدم دوق روس لطلب يدك للزواج قرب نافورة ماء.»

فتوجهت مارسيا نحو مقعد والدها وانحنت ثم قبلت خده. وهي تقول: «احبك، يا أبي فانت لا تفقد حس الفكاهة مهما تكن غاضباً.»

«أنا بحاجة لذلك! ولا أعلم بالتحديد مدى حاجتي هذه!»

«فكر فقط في ما سيحل بك وكم ستشعر بالملل إذا ما انا تزوجت من فيكونت أو أي من الشبان الخرقى الذين تقدموا للزواج مني في ربيعي الأول. لانه سيترتب على ذلك سماعك العديد من النساء يقترحن عليك الزواج مرة ثانية.»

«ليثرثروا ويتكلموا حتى الموت! فأنا لن اصغي اليهن!»

«وانت تتوقع مني ان اصغي اليك.»

امسك الايرل يدها وقال: «انت جميلة جداً، يا ابنتي العزيزة وتعرفين كم انا احبك واتمنى لك السعادة. لكن، وبكل صراحة، لا يمكنك متابعة حياتك بالطريقة التي تعيشين بها الآن. علي ان العب دور الأب المتسلط والرصين وابحث لك عن رجل يمنحك من السعادة قدر يكفي للعالم كله.»

«لكن هذا أمر لا يمكن التأكد منه.»

فانتصبت واقفة مرة أخرى ونظرت إلى نفسها في المرآة فوق المدفأة. ثم قالت بصوت هامس: «اعتقد انني لو لم اكن بهذا الجمال لكنت شكرت الرجل الذي سيوافق على الزواج مني لانني ابنتك.»

لم يعلق الايرل على كلامها رغم انه كان يصغي لما تقوله. فتابعت مارسيا: «لكن بما ان لدي وجه جميل، وعقل راجح، فأنا اطلب المزيد، الكثير منه، اكثر من مجرد رجل يمنحني اسمه.»

«لقد قدم لك الكثير من الشبان حبهم لك.»

ففكرت مارسيا قليلاً ثم قالت: «اعلم ذلك. لكن ما قدموه لم يكن كافياً، لا يفي بما هو مطلوب.»

وكان في صوتها نبرة من الأسى حين توجهت نحو الباب وقالت: «عمت مساءاً يا والدي العزيز. خطط لرحلتنا إلى فرنسا، لكن تذكر بانني لم اعدك بان اتصرف سوى بطريقتي أو ان اتزوج من أي شخص ما لم يكون الفائز في سباق لونغ شامبس.» ثم فتحت الباب وتابعت: «فرغم كل شيء، لقد حاول احد اباطرة الرومان الزواج من حصانه، فلم لا افعل انا هذا؟»

خرجت واغلقت الباب قبل ان يتسنى لوالدها الرد أو التعليق على ما قالته. ليسمع وقع اقدامها تبتعد لاحقاً.

فتنهد ثم ضحك وقال بصوت تردد صداه في الغرفة حيث بقي وحيداً: «كم هي عنيدة.»

وحين وصلت مارسيا إلى غرفتها، لم تطلب من خادمتها المساعدة لانها تعلم من قبل ان الخادمة مصابة بزكام وانها في سريرها. لكن الخادمة اتت وقالت لها: «لا عليك، ساكون بخير يا سيدتي.»

«شكراً لك، اذهبي إلى النوم وتناولي شراباً ساخناً، واذا ما شعرت انك لست على مايرام غداً أيضاً، اخبري مدبرة المنزل باني طلبت منك البقاء في غرفتك.»





شعرت مارسيا بارتياح لانها اصبحت لوحدها الآن. توجهت نحو النافذة وفتحت الستائر. وعندما نظرت إلى السماء وجدتها مليئة بالنجوم وضوء القمر يحول اشعتها إلى أشعة فضية. واخذت تفكر في نفسها قائلة انه بما ان اسمها مشتق من اسم كوكب مارس، فانها كانت في كل ليلة تتمنى لو انها تحلق إلى ذاك الكوكب وتترك هذه الأرض بكل ما فيها من تفاهات مزعجة. ثم سألت نفسها: «لماذا لا اقع في الحب؟ ما خطبي؟» وراحت تفكر بالفتيات اللواتي كانت تجتمع بهن، فكن يخبرنها عن الشبان الذين يحلمن هن بهم. وتساءلت لماذا لم تتحدث هي عن ذلك يوماً. وتقول ان ذلك عائد لكونها لن تخدع رجل بالسخرية منه في غيابه. ولم تكن تعي هي ذلك، لكن والدها علمها طريقة واسلوب تصرف الرجل النبيل، ولم تناقش يوماً مع فتاة أو امرأة أخرى أمر بهذه الخصوصية، الزواج، أو ان تقرأ رسائل الغرام التي ارسلها لها شخص بصوت عالٍ مجاهرة. فقد كان بعض تلك الرسائل خاصاً لانها لم تتمكن من مبادلة الحبيب المغرم ما يشعر به. وهي على يقين انه ما من فتاة في مثل عمرها قد تلقت عروض للزواج بقدرها هي.

اضف إلى انه، وكما اخبرها والدها، كان معظم المتقدمين شخصيات لامعة، مثل الدوق باكستيد، وكذلك افراد عائلات عريقة. غير ان ما كانت تشعر به نحوهم لم يتجاوز الصداقة، الاهتمام، وبعض التعاطف، لكنه لم يكن حباً، الحب الذي تتمناه. فقد تعلمت من الكتب التي قرأتها ان النساء والرجال قد ناضلوا لأجل الحب منذ بداية الكون. فيحالفهم الحظ ويجدونه احياناً.

فسألت النجوم الساطعة المتلألئة: «ما هو الحب؟» ثم سألت القمر: «كيف لي أن أغرم؟»

لا جواب بالتأكيد، غير انها كانت تشعر مع تسلل نسمات الهواء اليها من النافذة ان الحب يأتي من حيث لا نعلم. لان الحب يسمو بالقلب والروح. ولانه كذلك يحول القبيح إلى جميل والعادي إلى رائع. ومع هذا، لم تجده. ورغم محاولتها اقناع نفسها بانها مغرمة، الا انها تكتشف لاحقاً ان الامر غير صحيح.

وهي تدرك ان ما يفعله والدها هو ما يعتقده الافضل لها. ولم تغضب لانه ينوي اصطحابها معه إلى فرنسا، لعلمها ان ما سيحاول القيام به سيبوء بالفشل، ان يرغمها على الزواج من دوق روس.

وما كان يريحها في ذلك هو ان الدوق لا يحبذ فكرة الزواج تماماً كما هو الحال معها! فبالنسبة له، ستكون الزوجة امرأة يشعر بالسأم منها بعد عدة اسابيع! وبالنسبة لها، لا تستطيع ان تتصور شخصاً يغازلها وهي لا تشعر بأي انجذاب نحوه سوى البغض.

فقالت في نفسها: «انها رحلة فاشلة، لكنها مثيرة. فأنا سأتمكن من رؤية فرنسا، البلد التي لا اعرف عنها شيئاً سوى ما قرأته في الكتب، اضافة إلى انني سألتقي بشخصية فرنسية لامعة ومهمة والذي انا واثقة من ان شخصيته تطابق تماماً شخصية كازانوفا.»

فهي لاتزال تذكر الروايات والقصص التي سمعتها حين كانت يافعة حول الاجواء الفاضحة في الامبراطورية الثانية. حتى ان والدتها قد تحدثت في بعض الاحيان عن





تصرفات الرجال الاثرياء الفاضحة والذين كانوا ينفقون ثروات طائلة في باريس.

وهذا جعل مارسيا تقول في نفسها: «إذا كان ذلك لايزال يحصل في باريس، فان دوق روس لن يهتم بي.» ثم نظرت نظرة أخيرة إلى النجوم واسدلت الستائر، وتساءلت إذا ما كانت خيول الدوق تتساوى مع خيول والدها التي لم تجد لها مثيل بعد!

# الفصل الثاني

كان دوق روس يتأمل كروم العنب خاصته خلال عودته إلى قصره برضى وسرور. إذ بدا واضحاً من أنه سيكون هناك محصول وافر. وأدرك كذلك أنه سيشارك سروره هذا من عمل في هذه الأرض.

لقد كان يمتطي إحدى أجمل الخيول التي أشرف على تربيتها هو شخصياً والتي كانت حديث الناس في فرنسا.

ورغم ذلك لم يكن راضياً، لأنه يريد خيول أجود للمباراة، وكان متأكداً من أن إيرل غريتسوود يستطيع مساعدته على تحقيق هذا.

وقد كان حلمه أنه في يوم من الأيام سيكون مالك للخيول التي تفوز ليس فقط في فرنسا بل أيضاً في انكلترا وفي أي بلد آخر.

وخلال زيارته لهنغاريا، استعلم عن أمور كثيرة لم يكن ملماً بها من قبل، وهو يعتقد أنه من المثير مناقشتها مع الإيرل.

نظر الدوق أمامه ليرى قصره مظللاً بفيء الأشجار التي تنبت من عمق الأرض الصخرية وترتفع عالياً.

ولم يسبق له أن رأى في أي مكان آخر في العالم هذا التناقض المذهل بين العمق والارتفاع كما في دوردون.



ففي منخفضات أخرى، كما هو الحال هنا، تزرع كروم العنب من أفخر الأنواع الفرنسية.

لكن المرتفعات الصخرية الشاهقة كانت تبعد أي مظاهر محتملة لوجود بشري. مما جعل الدوق يعتقد أن الفلاحين محقون في اعتقادهم بأن هذه المرتفعات تسكنها حيوانات غريبة.

تابع الدوق سيره من الأرض المنخفضة صاعداً نحو قصره. وكلما اقترب، كان يتضح له أكثر فأكثر انعكاس أشعة الشمس المتراقصة على صفحة الماء في النافورة هناك. ولطالما خالجه شعور بأن روعة قصره لم تتوقف يوماً عن دهشته، رغم تجوله المتكرر إلى باريس وإلى أماكن أخرى من العالم.

لكنه كان يدرك لدى عودته أنه ينتمي إلى هذا المكان، دوردون.

وما إن توقف أمام المدخل الخارجي للقصر حتى رأى السائس بانتظاره. وعندما ترجل عن فرسه، قال الدوق:

«لقد أحسنت أكيلين أداءها اليوم.»

فابتسم السائس وكأن كلام الدوق بمثابة مجاملة له، ثم أخذ الفرس إلى الإصطبل.

سار الدوق ببطء متسلقاً الدرج ليدخل بعد ذلك إلى الردهة الكبرى حيث كان بانتظاره أربعة من الخدم فأعطاهم قبعته وسوطه وقفازاته قبل أن يقول كبير الخدم، مايجردومو: «إن كونت تيفيير بانتظارك في القاعة الصغرى، يا سيدي.»

فظهر في عيني الدوق بعض من علامات الامتعاض لأنه لم يكن يتوقع لقاء ابن أخته من أبيه.

لقد كانت تكبره بسنوات عدة بسبب كونها الابنة الوحيدة من زواج والده الأول. وهو يشك في سبب حضور هذا القريب إلى قصره.

ومع ذلك، لم يكن هناك ما يستطيع فعله حيال ذلك. ومشى ببطء نحو باب القاعة الصغرى. فهو يعلم أن ابن أخته، ساردوس، سيكون بانتظاره منفرداً.

فتح الخادم الباب، وعندما دخل الدوق تأكد من صحة ما كان يعتقده.

فقد كان ساردوس بمفرده، يقف عند النافذة وظهره نحو الباب إلا أنه استدار بسرعة حين سمع الدوق يدخل وقبل أن يتفوه خاله بأية كلمة قال: «صباح الخير. قد تفاجئك زيارتي، لكنني أود التحدث إليك.»

«إنها مفاجأة بالطبع. إذ أن آخر ما سمعته عنك هو كونك في باريس. وما أنا متأكد منه، هو أنك أمضيت وقتاً ممتعاً للغاية.»

وقد علا نبرة صوت الدوق شيء من النقد، وتشديد على كلمة ممتع التي لم يسىء ابن أخته فهمها. فهو شاب وسيم وأنيق، شعره الشديد السواد مسرح إلى الخلف وثيابه تتبع كل ما هو جديد في عالم الأزياء. لذلك فهو يبدو جذاباً جداً.

كذلك لاحظ الدوق، بعينيه الثاقبتين علامات الإرهاق لكثرة سهره. علماً أنها لا يجب أن تكون ظاهرة على من هو في مثل سنه.



أما شفتيه الدقيقتين فقد كانتا تتعارضان مع كلامه المعسول الذي لطالما تفوه به.

توجه الدوق نحو المدفأة التي، وبما أنه فصل الصيف، تجدها مليئة بالأزهار، ثم توقف عند المدفأة وأدار ظهره لها وقال: «أعلم سبب زيارتك لي يا ساردوس. والرد هو كما في المرات السابقة. لا يمكن لهذا أن يستمر.»

«توقعت أن تقول هذا، يا خالي آرموند. لكن دعني أعلمك بأنني في وضع لا أحسد عليه، وإن لم يتم تصحيحه، فإنه سيتسبب بفضيحة.»

جفل الدوق لسماعه ذلك الكلام وقال بنبرة حادة: «ماذا في الأمر هذه المرة؟»

جلس ساردوس على إحدى الأرائك وقال: «لم يكن الذنب ذنبي، فقد حاولت تدبير أموري بعد مساعدتك لي في المرة السابقة، لكنني تورطت مع رجل سلبني الكثير من مالي. وبما أنه مفلس، يصعب علي استرجاع ما خسرت.»

لم يشعر الدوق بأن هذا الكلام غريباً على مسامعه، فقال بصوت عال: «كيف صرفت كل تلك الأموال التي ورثتها بعد وفاة والدك، إضافة إلى النقود التي أعطيتك إياها حين جئت إلى هنا في المرة السابقة؟»

لم يجب الكونت على سؤال الدوق الذي قال بعد لحظات: «أعتقد أن معظم ما صرفته من مال هو بسبب الاصدقاء! يجب عليك أن تعرف أنه ما من رجل، مهما بلغ ثراؤه، يستطيع أن يتحمل طلبات هؤلاء الاصدقاء.»

فعلق ساردوس متذمراً: «هذا ليس عدلاً. فقد استمتعت

بحياتك من قبلي، ولا يمكنني أن أفهم لماذا تحاولي منعي من القيام بذلك.»

«لقد تمتعت بوقتي... بالتأكيد... لكنك كنت أتحكم بمصروفي بطريقة أفضل مما أنت فاعل. فأنت بالغت كثيراً.»

«لا أفهم لماذا تقول هذا. فأنا شاب وأريد التمتع بالحياة قبل أن أستقر في النورماندي حيث أملاكنا وحيث لا توجد امرأة واحدة شابة.»

ظهر التعجب في عين الدوق، ثم قال: «لم تحاول يوماً ادارة أملاككم وتحسينها، رغم أنها في النهاية هي لك أنت، بل ما فعلته هو أنك سلبت والدتك كل ما تملك.»

انتصب ساردوس واقفاً بعصبية ثم قال: «اتهامات، اتهامات! ألن أسمع أي كلام آخر سوى هذا؟»

فرد الدوق بالحدة ذاتها: «أنت من يسبب ذلك لنفسه فقد انفقت أرقاماً خيالية من الأموال خلال الأعوام الأخيرة وكما سبق وقلت لك، لا يمكن لذلك أن يستمر. فأنت لست الوحيد الذي تحت وصايتي.»

«أعلم ذلك. لكنك شديد الثراء، ولماذا يجب علي أن أبقى بعيداً بينما يتنعم الآخرين بما تنفقه عليهم.»

عبس الدوق وقال: «على عكس ذلك، يا ساردوس. فبعد أن قمت بإحصاء لقيمة ما أنفقته على الأقارب خلال السنوات الثلاث الأخيرة، تبين أنك على رأس القائمة بإنفاقك القسم الأكبر من هذه الأموال.»

«أنا ابن أختك الوحيد. ووالدتي هي أختك الوحيدة، وسبب لجوئي إليك مقبول ومنطقي أكثر من أقربائك



الآخرين الذي يصرخون من شدة الفقر لدى رؤيتهم إياك.»

«لكن دعني أعلمك أنهم ممتنون جداً حيال ذلك، وهم يعيشون بسلام لأنهم لا يهدرون المال على الاصدقاء كما تفعل أنت.»

«لا أحد يعرف كم يكلف ذلك أكثر منك، يا خالي آرموند.»

غير أنه حين رأى تلك التعابير تعلو وجه الدوق غيّر نبرة صوته وقال: «أرجوك، أرجوك ساعدني. فأنا في حال يرثى لها، ومهدد من الدائنين، لا يمكنني مماطلة الأمر أكثر من ذلك.»

ولم يتفوه الدوق بأية كلمة إذ انه قد سمع هذا الرجاء مرات عديدة من قبل. عاد ساردوس يقول: «أعدك، وأقسم لك بأنني لن أقع في دين كهذا مجدداً. لكن ساعدني، أرجوك ساعدني. فهذا رجاء رجل يغرق.»

ومما لم يعجب الدوق المبالغة في التعبير الدراماتيكي الذي استخدمه ساردوس. فقد سمع الكلام ذاته من الشخص ذاته وفي المكان ذاته في المرة السابقة.

نظر إلى الساعة وقال: «آه، لقد حان وقت الفطور. لذلك اقترح أن تؤجل الحديث إلى وقت لاحق من اليوم. وعلى افتراض أنك ستظل هنا اليوم، اقترح أن تجلس مع سكرتيري وتحضر قائمة بالمطلوب ذاكراً اسم الشخص والمبلغ الاجمالي. فنناقش ذلك الأمر لأقرر ما إذا كنت سأساعدك أم لا.»

وبعد أن أنهى كلامه، ترك الغرفة مسرعاً قبل أن يعاود ابن أخته الحديث في الموضوع.

وعندما ترك ساردوس وحيداً، أخذ يضرب قدميه

بالأرض، ويتمتم قائلاً: «لماذا لا يعطيني المال ويتركني أفعل ما يحلو لي؟» فأدرك من كلامه كم هو يكره الدوق وتمنى لو أنهما يستطيعان قلب الأدوار ليتمكن من إخبار الدوق كم يكره التورط في أمور عائلية. ثم قال لنفسه ان أمله الوحيد هو أن يقنع الدوق بان يموله حتى لو اضطره ذلك لتقبيل قدميه. وفي نفس الوقت كره الموقف الذي هو فيه. فلطالما شعر بالغيرة بسبب أهمية عائلة والدته رغم كون والده من الأرستقراطيين، إذ أنه لا يتساوى مع عظمة وثراء دوق روس.

فالأملاك التي حصل عليها ساردوس على قدر كبير من الأهمية. إذ أنه قد مضى على بناء قصر تيفيير القديم أجيال عدة.

لكنه، رغم كل شيء، في نقطة نائية في النورماندي.

فمنذ أن بلغ ساردوس سن الرشد، كان يتمنى أمراً واحداً، وهو أن يهجر كل ذلك ويتمتع بنفسه في باريس.

ذلك لأن شاب مندفع ومفعم بالحياة هو شاب مرحب به في المجتمع الباريسي الصاخب. الأمر الذي لم يكن مقبولاً في النظام القديم. لذلك فقد نجح ساردوس بطريقته الخاصة.

ولطالما تاق ساردوس ليكون شخصية هامة حتى ولو كان ذلك مع نساء تجدهن والدته غير لائقات به ومع رجال يستحيل دعوتهم إلى قصر روس. لكن ذلك كلفه الكثير.

وبعد أن أنفق كل ما لديه وأهمل أملاكه وقصره القديم، أصبح مضطراً للجوء إلى الدوق. فقال في نفسه: «أنا أكرهه، أكرهه!»



أيا كان، ولمعرفته أن الطعام أصبح جاهزاً، توجه نحو القاعة المذهبة.

إنها المكان حيث يجتمع الدوق وكل الضيوف الذين يقيمون في القصر لبعض الوقت قبل إعلان تجهيز الطعام.

ومن هؤلاء الضيوف من يستمر في قول الأعذار كي يطيل إقامته في القصر. إذ أنه لا يمكن لهم أن يتمتعوا بالراحة والرفاهية في أي مكان آخر في فرنسا، وحيث يأكلون أشهى المأكولات ويشربون أفخر أنواع القهوة ويقيمون بضيافة مضيف وسيم للغاية.

ولكم أزعج ساردوس رؤية الجميع يحاولون إرضاء الدوق وكأنه امبراطور، إذا لم نقل أكثر من ذلك.

وحين دخل ساردوس القاعة، قال الدوق: «هناك ضيف آخر لم أعتقد أنكم تتوقعون رؤيته. ها هو ذا.»

استدار معظمهم لرؤية الضيف وصرخوا مندهشين: «ساردوس! يا لهذه المفاجأة!»

فقد كان يجمع معظم الأقارب.

وظن في نفسه أن الرجال الموجودين، والذين هم إما أزواج قريباته وإما من معاصري الدوق، ظن أنهم ينظرون إليه بازدراء. فقال في نفسه انه يكرههم.

ظاهرياً، كان يحاول الابتسام ليزيد من وسامته، مما جعل السيدات من قريباته ينعتنه بـ «الشاب المرح».

ولدى سماعه ذلك أخذ يبادل النساء مجاملاتهن له كما فعل كذلك مع الأصغر سناً من هؤلاء النساء.

وكان الجميع يتمتع بمزاج مرح لدى دخولهم إلى غرفة الطعام، باستثناء الدوق الذي كان يراقب ساردوس بحذر.

ذلك ليقينه من أنه قد يطلب المال من بعض أقاربه الأكبر منه سناً إذا ما كان لديهم ما يفيض عن حاجتهم.

وكم كان الطعام، الذي قدم للضيوف في قاعة الولائم الكبيرة، والتي تتسع لعدد من الضيوف يترواح بين الخمسين والستين، كم كان شهياً.

كان الدوق شخص ذواق وخبير ويريد النظام والإجادة التامة في كل شيء في مدار اهتمامه.

ولأن العادة في فرنسا تجري في أن يتكلم الأشخاص المجتمعون حول المائدة كل إلى من يجلس بقربه، فقد علا صوت الأحاديث.

ووجد سارودس نفسه مسلياً ومحنكاً تماماً كما هو حاله في باريس.

فقد كانت النساء بارعات في التصرف بلباقة مع الرجال ليجعلوهن يشعرون بارتياح تام.

وعند انتهاء الجميع من الطعام وتوجه معظمهم إلى القاعة المذهبة، اختفى الدوق. فلديه بعض الأعمال ليقوم بها وبعض الاتصالات ليجريها. وأراد كذلك أن يفكر في قضية ساردوس قبل أن يعاود التحدث إليه مجدداً.

ولم يتوجه إلى القاعة الصغرى حيث يجلس في معظم الأوقات، بل توجه إلى المكتبة ظناً منه أن ساردوس لن يتبعه إلى هناك. ويوجد في المكتبة مكتب كان يجلس خلفه حين يكون لديه شؤوناً جدية ورسمية يعمل على إنجازها. إضافة إلى تاريخ عائلة روس الذي كان يكتبه حين يكون لديه وقت.

فقد كانت شجرة العائلة مطروحة أمامه على المكتب.





وقد مضى أجيال وأجيال على الشخصيات التي تحملها هذه الشجرة وإذا ما نظر الدوق إلى أسفلها وجد اسمه هناك.

وإلى جانب اسمه كان هناك اسم زوجته التي توفيت في نفس السنة التي تزوجا فيها. ورغم مرور تسع سنوات على ذلك، إلا أن الدوق كان واثقاً من أنه لن ينسى ما جرى أبداً. إذ أنها كانت مصيبة مفجعة.

وكما هو معتاد في العائلات الأرستقراطية، فقد قرر والد الدوق، حين بلغ هذا الأخير سن الرشد، أي من الفتيات يجب أن يتزوجها آرموند.

وهذا يناسبه تماماً لأن أملاكه وأملاك ماركيز دي لاسكو تمتد جنباً إلى جنب. أضف إلى أن اجتماع وتوحيد العائلتين سيزيد من نفوذهما ويجعلهما الأقوى والأوسع سلطة في دوردون.

وحسب رأي والد الدوق، ان ابنة الماركيز جميلة وفاتنة رغم أنه لم يتعرف أو يعرف عنها الكثير، إلا أنه كان واثقاً من أنها ستكون زوجة مناسبة لابنه حين يبلغ الواحد والعشرين. ولم يكن مستغرباً في فرنسا أن يتزوج ورثة الألقاب المهمة في سن مبكرة. وقد كانوا يعلمون ذلك على أنه أفضل ما ورثوه عن أجدادهم وأسلافهم.

وعندما كبر آرموند، أصبح شاباً وسيماً وجذاباً للغاية. كذلك فقد أصبح فارساً لامعاً وبرع في المبارزة بالسيف.

وقد حاز على عدة شهادات تفوق في المدرسة والجامعة.

ولم يكن هناك من عائلة في فرنسا لم تكن تتمنى أن تناسب دوق روس. وما كان عليه سوى أن يختار إحداهن.

ومهما يكن، فقد حسم الدوق أمره وأطلق وعداً بالزواج منها.

ولم يجد أحداً أي سبب يجعله يتزوج غيرها، وهي التي تسكن في الجوار.

رغم أنهما لم يتعرفا إلى بعضهما البعض تعارفاً يؤدي إلى زواج. وذلك لانشغال آرموند بطموحاته في باريس. وأيضاً لاهتمامه الشديد بخيول السباق خاصته وخاصة والده.

ولقد تمت دعوته لمرافقة من هم في مثل سنه من الأرستقراطيين تقريباً في كل بلد زاره في أوروبا.

ثم تم زواجه بالطريقة التقليدية، أما بالنسبة للهدايا التي تلقاها العروسان، فقد ملأت ثلاث غرف في قصر الماركيز.

وكان العروسان يبدوان رائعين. وبكت السيدات في وداعهما حين سافرا لقضاء شهر العسل. وأوشكت الزهور التي تناثرت فوق العروسين أن تملأ العربة ليكتشف آرموند حقيقة الأمر بعد اسبوعين من زفافهما، لقد كانت زوجته الفاتنة، مجنونة. فهي إما لا تتكلم أبداً أو تصرخ بطريقة هستيرية تجعل الاقتراب منها مستحيلاً.

وكم بدا له صعباً أن يعترف بأنه قد نصب له فخاً.

وكان ذلك جلياً من لهفة الأهل في اتمام المراسم متعمدين عدم ذكر أي أمر يتعلق بهذا الموضوع.

فأدرك متأخراً أنه، عملياً، لم ينفرد بسيسيليا. فقد كان





يشك في أنهما ما أن يكونا في الغرفة، حتى يشعر بأحدهم يتنصت خلف الباب.

فتبين له أن أهل سيسيليا لم يكونوا قلقين من أن يخيف ابنتهم بل من أن تخيفه هي!

ولدى عودته أجبر والده والماركيز على مواجهة الحقيقة. فتم أخذ سيسيليا إلى ما يسمى مستشفى، بل في الواقع، كانت مصحاً للأمراض النفسية والعصبية.

غير أنها توفيت قبل أن يمر على وجودها في المصح العام الأول، الأمر الذي اعتقده الجميع رحمة لها.

لكن وفاتها تركت آرموند تحت تأثير خوف رهيب من الزواج جعله يقسم ألا يتورط في ذلك ثانية، وكذلك الا يجعل أحداً يدير له ويرتب أمور حياته.

فما حصل فعلاً هو أن آرموند روس تحول إلى رجل بكل معنى الكلمة. فقد كان في الواحد والعشرين من عمره حين أصبح مساعد والده الأول.

لكن ذلك لم يزعجه لأنه يحب والده. وكذلك لاعتقاده أن الدوق الأكبر، يعرف ما هو الأفضل له.

أما الآن فقد قرر أن يكون سيد نفسه وأن لا يسمح لأحد مطلقاً بالتدخل في شؤونه. قد يبدو ذلك استبدادياً بعض الشيء لكن إصرار والديه لم يغلب استبداديته.

وطبعاً، كباقي الرجال، حاول أن يمحي من ذهنه فظاعة ما حصل. فلجأ إلى المكان الذي يستقبل من هم في حالة من اللااستقرار.

رحبت به باريس وفتحت له ذراعيها. فمضى فترة قصيرة مع بعض الاصدقاء من طبقته الاجتماعية.

ثم بدأ أقاربه بترغيبه ثم راحوا يكررون طلبهم بإلحاح بضرورة زواجه وإنجاب وريث له.

لكن مع كل كلمة، كانت ذكرى شهر العسل المرير تعود إلى ذهنه بشكل تجعل ما حصل يبدو وكأنه قد حصل الآن. حتى انه قال لجدته: «أنا لن أتزوج ثانية إلا إن أغرمت.»

فنظرت إليه بذهول وقلق ثم قالت: «لكن، يا حفيدي العزيز، ما الذي كنت تفعله طيلة هذه السنين؟»

«كنت أستمتع بوقتي، يا جدتي. وهذا كما أعتقد ليس حباً.»

«أنا لا أفهمك.»

فانحنى آرموند قبل خديها، ثم قال: «من المؤسف أنك لم تفهمي ما عنيت. لكنني أعدك بأمر واحد، إنني عندما أقع في الحب، سوف اصطحبها معي إليك لتتعرفي إليها وتسمعيني رأيك.»

كان على الدوقة أن ترضى بذلك، فهي تحب حفيدها وعندما علمت بعلاقته الأخيرة مع ماركيزة جميلة، بكت. فهي تتمنى أن ترى أطفال حفيدها يلعبون ويملأ صراخهم المكان. كما ترغب برؤيتهم يحاولون أن يمسكوا بالأسماك الذهبية الموضوعة في حوض نافورة الماء.

فتساءلت عما يمكنها أن تقول له لتقنعه؟ فهي تعلم تماماً أن آرموند لن يصغي إليها وأنه سيفعل ما يحلو له مهما قال المحيطين به.

غير أن الدوق كان مسروراً جداً لما هو عليه. فقد أصبح في سن الثلاثين، وهو الآمر الناهي في كل ممتلكات والده، وذلك لوفاة الأخير منذ أكثر من خمس سنوات مضت. وما





كان يمتاز به هو قدرته على التجديد والابداع. لكن متعته الأكبر كانت لدى رؤيته خيوله تصبح أكثر وأكثر تميزاً مع الوقت. وقد ظل يربح مباراة تلو الأخرى حتى قال بعض المالكين: «إذا ظل وضعك هكذا، يا روس، فنظن أنه من الأفضل أن نرحل، هذا إن كنا نرغب حقاً في أن نربح أي مباراة!»

وكل ما فعله الدوق هو الضحك. فهو يدرك أنه، رغم غيرتهم وحقدهم، قد ساهم في رفع مستوى سباق الخيل في فرنسا. كذلك فهو يدرك أن سباقاً واحداً مع واحد من كبار مالكي الإصطبلات سيكون من أفضل الأعمال التي يقوم بها.

وبعد ظهر ذلك اليوم، توجه إلى الإصطبل. فهو يقوم عادة بتفقد خيوله قبل أن تغلق الأبواب عليهم في المساء.

وأول ما فعله هو اختيار الفرس الذي سيمتطيه في صباح اليوم التالي. ثم تحدث إلى كبير السياس عن أحد الخيول الذي لا يبدو على ما يرام، ثم هنأه على أداء عدد آخر من الخيول أثناء التدريب.

ولدى عودته إلى القصر عرف أن الساعة قد قاربت الرابعة والنصف. الوقت الذي يصل خلاله الايرل غريستوود.

وبما أن الدوق مضيف ممتاز، فقد قرر أنه كون الإيرل هو انكليزي، فإنه لن يمانع بشرب الشاي الإنكليزي.

لذلك فقد أمر كبير الخدم تقديمه في القاعة الزرقاء.

وبما أن رئيس الطهاة ماهر في صناعة المعجنات، فقد

تمنى ألا ينسى ما يقدم باستمرار مع الشاي في انكلترا لفائف مع الخيار.

قال الدوق في نفسه: «أريد أن يستمتع إيرل غريستوود بنفسه.»

فدخل بعد ذلك إلى القصر من باب جانبي وتقدم عبر ممر طويل نحو مدخل البيت الأمامي.

ولحسن الحظ أن الثورة لم تخلف دماراً وموتاً كبيرين في دوردون.

ومعظم مفروشات القصر كانت تعود للملك لويس الرابع عشر. فهو يذكر تماماً أنه قد تم تهريب عدد من الأثاث الفاخر واللوحات النادرة عبر القناة بعد الثورة.

ولا يمكننا القول ان أثاث قصر باكينغهام هو الرائع فقط.

إذ أن هناك خمس غرف رائعة في قصر سكون في اسكوتلندا. كون إيرل مانسفيلد سفير بلاده إلى فرنسا في ذلك الوقت.

في الواقع أنه في كل بيت زاره الدوق، كان هناك مناضد فرنسية وخزائن مزركشة بالصدف والعاج. ولا بد أن مصدرهم هو فرساي أو من قصور الأرستقراطيين الذين ماتوا.

وفيما يخص مجموعة روس، فقد تم المحافظة عليها بسبب وجود أفراد من العائلة على قيد الحياة.

وبالرغم من ذلك هنالك العديد من أصدقائهم الذين لم يبق أي أثر لهم بعد إعدامهم في ساحة الثورة في باريس.

دخل الدوق إلى القاعة الزرقاء. لكن لم يكن الإيرل قد



وصل بعد، بل وصلت زائرة أخرى كان يتوق إلى رؤيتها. فهي جميلة جداً، وهي برأي كبار الرسامين في باريس السيدة الأجمل على الإطلاق.

وقد كانت الماركيزة دي غروزون في ذروة جمالها في سن الخامسة والعشرين، فلديها شعر قاتم اللون وعينيها كذلك.

بالاضافة إلى بشرتها البيضاء وقامتها الطويلة.

ولدى دخول الدوق إلى القاعة كانت هي تقف عند نهايتها. فوقف دون حراك لبضع لحظات عند المدخل متأملاً جمالها وأناقتها اللذين لا يمكن وصفهما.

ولدى رؤيتها إياه توجهت نحوه ممدودة اليدين، وقالت: «ظننت أنك نسيتني.»

«أعذريني، لم أتوقع وصولك باكراً إلى هذا الحد.»

ثم مد يده ليصافحها وهو ينظر في عينيها فسألته: «هل اشتقت إلي؟»

«طبعاً.»

«آه، يا آرموند. لقد كنت أعد الساعات حتى تمر وآتي للقائك.»

«وها أنت هنا. أشعر أن الغرفة قد زادت اشراقاً بوجودك.»

كم سرها ما قاله، فابتسمت. وكانت على وشك أن تتكلم عندما فتح الباب ودخلت الكونتيسة دي سواسون، التي قالت بدهشة: «آه، ها أنت ذا، آرموند. كنت أبحث عنك. لقد بلغني أن هناك شاي إنكليزي بعد ظهر هذا اليوم.»

«أجل، سنقدم الشاي الإنكليزي لأن صديقي إيرل غريتسوود سيصل قريباً. لكن، دعيني أعرفك إلى الماركيزة دي غروزون التي قد وصلت لتوها.»

فمدت الكونتيسة يدها، وقالت: «لقد سمعت عنك، سيدتي كما أن روايات جمالك قد وصلت إلى الدوردون.»

فابتسمت الماركيزة، قائلة: «شكراً لك. يسرني وجودي معك هنا.» وفيما هي تتكلم، كانت تنظر إلى الدوق الذي بادلها الابتسام. والذي لم يلاحظ مدى إعجابها به وكأنه لا يعرف مدى وسامته.

عندها، ظهر مايجردومو معلناً: «لقد وصل إيرل غريتسوود، يا سيدي.»

بدا على وجهه علامات الدهشة قبل أن يتوجه الدوق لاستقبال الإيرل.

وما أن مد يده لمصافحة الإيرل، حتى اكتشف أن هناك شخصاً آخر يرافقه. فسأل الإيرل: «كيف حالك؟ أشكرك على العربة الجد مريحة التي أرسلتها لتنقلنا من المحطة. ولقد فوجئت بالسرعة التي وصلنا بها إلى هنا.»

فابتسم الدوق وفي عينيه تساؤلات عمن تقف إلى جانب الإيرل، الذي قال: «أرجو معذرتي لذلك، لكنني اصطحبت ابنتي معي لأنني لم أتمكن من تركها في لندن بمفردها. وأنا واثق من أنك ستجد لها مكان صغيراً تأوي إليه في قصرك الكبير.»

لقد تأثرت مارسيا كثيراً بروعة المشاهد التي رأتها في الدوردون خلال رحلتها بالقطار من باريس إلى جنوب فرنسا. لتنحبس



أنفاسها بروعة القصر والنوافير الأربعة في الفسحة أمامه.

حتى انها شعرت لدى دخولها وكأنها في قصر من قصور القصص الخرافية.

وعندما دخلوا إلى قاعة الاستقبال، رأت فارس الأحلام يتقدم نحوهم. فقد كان الدوق مختلفاً تماماً عما كانت تتوقع. لنبدأ بالوصف، نقول انه كان أطول بكثير من معظم الرجال الفرنسيين. ولعرض كتفيه وتقاسيم جسمه فقد بدا لها رجل ذو جسم رياضي للغاية. وعندما رأته يحيي والدها، قالت في نفسها انه أكثر الرجال الذين التقتهم في حياتها وسامة.

فهو يختلف تماماً عن الصورة التي رسمتها له في ذهنها. كانت تشعر بصعوبة ترجمة ما تحس به إلى كلمات، لكنها تعي تماماً أن هناك شيء ما في الدوق يجعله لا مثيل له.

مدت مارسيا يدها وأدت التحية بانحناءة بسيطة. ولدى فعلها هذا أيقنت أن نظرات عيني الدوق لم تعد مرحبة كما كانت حين استقبل والدها.

وعوضاً عن ذلك كان يرمقها بنظرات أسمتها نظرات كراهية. وبنبرة صوت مختلفة قال: «بالطبع نرحب بابنتك. دعني أعرفك إلى الكونتيسة دي سواسون، عمتي، التي أظن أنك تعرفها، وأنها ستساعدني على تجهيز مكان لابنتك.»

ثم التفت فجأة إلى الكونتيسة التي كانت تقترب نحوهم. ولم يعجبه الأمر لدرجة أنه عندما حيّت الإيرل وقدم لها

ابنته، تركهم الدوق ومشى بعيداً. فتقدموا بدورهم إلى حيث طاولة الشاي مهيأة قرب المدفأة.

ولدى جلوسهم أدركت مارسيا أن الدوق الذي يتكلم إلى أجمل امرأة قد أدار ظهره لهم.



## الفصل الثالث

إن الدوق غاضب لأنه عرف حين ظهر الإيرل مع ابنته ما كان مخبأ من نوايا.

وبما أنه يمتاز بالحنكة، فقد كان يدرك أن لوجود الكونتيسة علاقة ما بحضور مارسيا مع والدها.

ورغم عدم اقتناعه بأن تكون مارسيا الزوجة المناسبة له أم لا، فقد كانت هي بدورها تتحدث عن ذلك باستمرار. وهي كذلك، على جسب اعتقاده، تناقش الأمر مع غير الإيرل أيضاً.

ومع أنه لم يبد هناك أي شيء غير طبيعي، إلا أن الصمت قد عم المكان حين دخل آرموند.

وما زاد في دهشته هو أنه لم يتوقع أن يكون للإيرل ابنة.

وهو يدرك تماماً أن رفضه للزواج هو أمر يتحدث به الجميع على الدوام. فقد حاول اقرباؤه بكل وسيلة ممكنة أن يقنعوه بالقيام بواجبه تجاه العائلة وإنجاب وريث يحمل اسمها. وأنه ما من صعوبة في تنفيذ ذلك.

إذ أنه منذ ان كان صغيراً كان يتردد على مسامعه رغبة كل عائلة عريقة في فرنسا أن تصاهر عائلة روس.

وكل ما كانت تثير هذه القضية في نفسه هو القشعريرة. ذلك لأن ذكرى سيسيليا كان يقف بينه وبين أي عروس مرتقبة.

ها هي الكونتيسة الآن تقوم بمبادرة أخرى وتعرض عليه إحداهن.

وبما أنه إعتاد على التماسك ورباطة الجأش من صغره فقد تمكن من إخفاء مشاعره.

وتابع هو حديثه مع المركيزة مداعباً إياها مستخدماً كلمات تحمل أكثر من معنى. واما هي فقد كانت سريعة البديهة ومداعبة كذلك خصوصاً حين يكون الحديث يدور حول الحياة الخاصة.

ومع ذلك فقد كان الدوق واثقاً من أن عدم تطرقها لمواضيع أخرى مرده إلى جهلها إياها أو عدم وجوده ضمن دائرة اهتمامها.

فيما يخص هذه اللحظات، ولأنه كان غاضباً جداً، فإنه راح يتأمل جمالها. إذ أن نظرات عينيها كانت مميزة ومثيرة.

وهذا ما هو معتاد فعله عادة معها.

أما الكونتيسة فقد كانت منهمكة في تقديم ابنة الإيرل لباقي الضيوف الذين انضموا إليهم لدى إبلاغهم خبر وصول الإيرل وابنته. ثم قامت الكونتيسة بعد ذلك بصب الشاي في الفناجين فجلس الإيرل إلى جانبها وقال: «لطف منك أن تقدمي لنا الشاي مع أني أعلم بعدم وجود تلك العادة في فرنسا.»

«لقد سرنا وجودكم معنا. أريد منكما أن تشعرا وكأنكما في منزلكما.» ثم تابعت بصوت هامس: «ان ابنتك رائعة الجمال. إنها حديث الجميع في لندن، فجمالها يحبس الأنفاس.»





«هذا ما أظنه أنا أيضاً. لذلك أنا فخوراً بها.»

«عليك أن تكون فخور جداً.»

في هذه الأثناء، كانت مارسيا تتحدث إلى اثنين من أقارب الدوق، فيما هو لا يزال منغمساً في الحديث مع امرأته الجميلة.

ولقد شعرت مارسيا للحظات أن تصرفه غريب بعض الشي، فهو يتجاهل والدها الذي كان يتوق لرؤيته.

وبنظرة ثاقبة من اثنين من الأقارب، كشفت الحقيقة.

فقد أعجبها رفض الدوق كذلك لفكرة الزواج المدبر.

وحزرت كذلك أنه لم يكن على علم بقدومها. وهذا يبرر تلك التعابير الغريبة التي ترتسم على وجهه حين ينظر إليها.

فقالت في نفسها: «علي أن أخبره بأنني أشعر تماماً بما يشعر هو به حيال هذا الأمر.»

حتى انها كانت على وشك أن تعلن ذلك لجميع الموجودين، بما أنهم مجتمعين في مكان واحد.

ورغبت كذلك في أن تخبرهم أنها أتت إلى هنا مرغمة. وهذا لتوضح لهم أنها لا تنوي الزواج من قريبهم الغالي، وإنهم إن كانوا يظنون ذلك فهم مخطئون.

واستحضرت في ذهنها ما سيكون حالهم حين تجاهرهم بهذا الأمر.

لكنها تذكرت أن ذلك قد يؤلم ويحرج والدها.

لذلك فإنه أمر لن تقوم به.

وبما أنها كنت تشعر بالجوع فقد استمتعت بشرب الشاي مع المعجنات اللذيذة التي حضرها الطاهي. ورفضت أن

تأكل اللفائف بالخيار رغم العناء الذي تكبده الطاهي بتحضيرها، لكن الإيرل أكل اثنين.

بعد انتهائهم من الشاي قالت الكونتيسة: «أنا أكيدة من أنك ترغبين برؤية غرفتك، يا ليدي مارسيا.»

«يسرني ذلك. وبما انك كنت صديقة لوالدتي، فأنا أرجو أن تناديني مارسيا.»

فوضعت الكونتيسة يدها على ذراع مارسيا مرافقة إياها قائلة: «يسرني ذلك. لكن بما أننا لم نلتقِ منذ ان كنت طفلة، فلم أرغب أن تعتقدي بأنني أرفع التكليف بيننا.»

فضحكت السيدتان وقالت مارسيا: «إنني أتوق لأتجول في أنحاء هذا القصر، وأتمنى لو أستطيع أن أنتهي من مشاهدته كله قبل أن نعود إلى انكلترا.»

اجابتها الكونتيسة: «سيكون هناك وقت لذلك. وستشاهدين الخيول أيضاً.»

وعندما انتصبت واقفة، وكأنها تدرك أن ابن أخيها لم يكن يتصرف بطريقة ودودة، قالت له بصوت عال: «لقد كنت أخبر مارسيا عن خيولك، يا آرموند. وأنا متأكدة من أنها ترغب برؤيتهم تماماً كما هو حال والدها.»

فوقف الدوق بعد تردد وقال: «لقد أتى الإيرل لرؤية خيولي. وهم كذلك هناك لأي شخص آخر يرغب برؤيتهم.»

كان الدوق يتكلم ببرود وهو ينظر إلى مارسيا بتمرد وكأنه يعترض على تطفلها ومجيئها مع والدها.



ولأنها تريد استفزازه، اقتربت منه قليلاً وقالت: «لقد سمعت الكثير عن قصرك، وخيولك، وعنك، يا سيدي. لدرجة انني لا أصدق انني هنا الآن.»

شعرت مارسيا خلال حديثها مع الدوق أن الكونتيسة مرتاحة لهذا.

لكن الدوق لم يتأثر بذلك، فمشى متوجهاً نحو الإيرل متجاهلاً مارسيا، وقال: «لدي الكثير لأحدثك عنه، يا سيدي اللورد لذلك أقترح أن نجلس في مكان هادىء بعيد عن ثرثرة النساء رغم جمالهن.»

فابتسم الإيرل وقال: «أعتقد أنهن سيشعرن بالملل سريعاً إذا ما تحدثنا هنا.»

فقال الدوق موافقاً: «هذا ما أعتقده أنا أيضاً.»

«باستثناء شخص واحد، هو ابنتي مارسيا، لأنها تشاركني الاهتمام بتربية الخيول الأصيلة وتتوق لأن ترى خيولك.»

لم يعلق الدوق ولا بكلمة واحدة.

ثم توجه نحو الباب والإيرل مرافقاً له. لذلك بدا جلياً لمارسيا انه غير مرغوب بها. وقالت في نفسها ان والدها لن يفعل الصواب إذا ما كلّم الدوق في هذه الأثناء بشأن زواجهما. لأن الدوق قد يكره ذلك.

لذلك رافقت الكونتيسة إلى الطابق العلوي. ثم طمأنت نفسها بعد ذلك أنه لا يسعها أن تفعل شيئاً حيال هذا الأمر، وأن والدها رجل لبق وسيعرف إذاً، كيف يقول ذلك ومتى.

إن الغرفة حيث قادتها الكونتيسة كانت رائعة، كان

يتوسطها سرير مظلل لا بد انه موضوع في المكان نفسه منذ أجيال مرت. أما السجادة فقد كانت نقوشها تبدو مطابقة لتلك النقوش المحفورة في السقف.

قالت الكونتيسة: «كنت واثقة من أن الغرفة ستعجبك إضافة إلى أن اللوحات المرسومة بريشة فراغونارد تضفي جواً من الرومانسية على المكان.»

أجابت: «إنها رائعة.» لكنها في نفس الوقت، كانت تشعر بأنها تقع في الفخ تدريجياً.

ويا له من فخ مزركش فخم وعريق، لكنه فخ!

تساءلت مارسيا في نفسها إذا ما كان عليها أن تخبر الكونتيسة بصراحة دون لف أو دوران عن حقيقة سبب وجودها هنا فقد أرادت أن تقول لها انها على الرغم من مرافقتها لوالدها، بناءاً على اقتراح الكونتيسة، إلا أنها لا تنوي الزواج من الدوق، ورغم ما سيتكبده الوالد والكونتيسة من عناء لاقناعها بالموافقة على الزواج. فإن مارسيا لن تفعل ذلك مطلقاً.

قالت لها الكونتيسة: «يسرني وجودك هنا. أنت تشبهين والدتك كثيراً، كم كنت أحبها وأظنها كانت أجمل امرأة رأيتها على الاطلاق.»

«أحب قولك لهذا الكلام. لعل هذه الرحلة إلى فرنسا تكون مفيدة لوالدي. فقد كان يائساً منذ وفاة والدتي. لذلك أجد ابتعاده عن المكان الذي يعبق بذكرياته معها وبما خسره وافتقده، أجد ذلك عملاً صائباً.»

«أفهم ذلك. فوالدك رجل مميز وذكي.»

«عليك أن تحاولي إخراجه من كآبته بما انه



يحب مرافقتك، إضافة إلى رغبته في رؤية خيول الدوق. أظن أن مزاجه سيتغير.» لعل مارسيا تحاول إبعاد التركيز والضغط عنها بقولها لمثل هذا الكلام.

«أعدك يا ابنتي العزيزة بأنني سأبذل كل ما بوسعي لأسعد والدك، وبالطبع، أريد أن أسعدك أنت أيضاً.»

فقالت مارسيا مستدركة وقبل أن تتمادى الكونتيسة في حديثها أكثر من ذلك: «إنني سعيدة، سعيداً جداً، سعيدة لوجودي هنا ولرؤيتي باريس للمرة الأولى بعد كل ما سمعته عنها وعن ما فيها من أماكن مسلية ومثيرة لدرجة اني أحسد من تسنى لهم الوقت للتمتع بها.»

«أعتقد يا عزيزتي أن ما يلفت انتباهك وما تتحدثين عنه هو ما يهم الرجال في باريس وليس النساء باستثناء فريدريك وورث وكل وكالات الأزياء تثير اهتمامنا وفضولنا.»

«هل تملكين العديد من الأثواب التي صممها وورث؟ دعيني أراهم. فطالما أخبروني أن أزياءه هي أجمل ما يمكن أن تشتريه امرأة.»

فشعرت الكونتيسة بعدم رغبة مارسيا الخوض في غمار ذلك الموضوع، وأعجبت بها لكيفية تغيير الموضوع بلباقة فائقة. وبعد لحظات، قرعت مدبرة المنزل على الباب لتدخل بعدئذ إلى الغرفة برفقة الخادمة التي ستعتني بشؤون مارسيا.

«أنا لم أحضر خادمتي معي لسبب بسيط وهو أنها ستشعر بضيق شديد إذا لم تتكلم الفرنسية. لكن أبي

اصطحب مساعده معه الذي يجيد الكلام بلكنة إنكليزية وبطلاقة.»

فضحكت الكونتيسة لسماعها ذلك.

مارسيا أجادت الكلام باللغة الفرنسية بطلاقة مع مدبرة المنزل والخادمة. إنها الشيء الوحيد الذي كان والداها مصرين على أن تتعلمه.

وأتت على ذكر ما قد قالته والدتها في إحدى المرات: «إني لأظنه أمراً رهيباً اننا منفصلين عن العالم في انكلترا. لذلك يجدر بنا تعلم لغات أخرى. وأنا ممتنة وسعيدة لأنني تعلمت الفرنسية حين كنت لا أزال طفلة صغيرة وعلى مارسيا أن تفعل ذلك أيضاً. وأظن أنه من الحكمة لو أنها تتعلم اللغتين الاسبانية والايطالية أيضاً، بما أنهما من البلدان التي ستزورها وتستمتع بوقتها هناك يوماً ما.»

وبما أنها كانت تتلقى تربية صبيانية فقد تعلمت اللغتين اليونانية واللاتينية، لتجد بعد ذلك كل اللغات سهلة التعلم.

وكم كانت فخورة بنفسها لتمكنها من قراءة جميع الكتب التي قام أسلافها بجمعها من نقاط مختلفة من العالم خلال سفرهم.

وبعد أن خلعت مارسيا قبعتها التي كانت تضعها أثناء السفر، أرشدتها الكونتيسة إلى غرفة الملابس التي يمكن الدخول إليها عبر غرفة النوم خاصتها والتي تحتوي على بعض اللوحات الجميلة.





فايقنت مارسيا أن كل ما يحيط بها كان مصمماً ليجلب جواً من الهدوء.

وأسفت لكون الخطة التي رسمتها الكونتيسة ستفشل رغم أن منفذي هذه الخطة ـ الوريث والبطلة ـ موجودين في مكان التنفيذ.

وبعد ذلك أرتها الكونتيسة غرف القصر الرئيسية الأخرى. وأخيراً اصطحبتها إلى جناح الدوق الذي من البديهي أن يكون المكان الأهم في القصر برمته.

فقد كان يشغل القسم الآخر من المبنى مع نوافذ تطل على الشمال، الجنوب، والشرق.

لذلك فإن بإمكانه أن يجول المكان بنظرة من عينيه على المنخفض وكروم العنب التي تمتد أمامه. ويتوسط هذا المنخفض نهر تحيط به مرتفعات خضراء لتجعل من ذلك مشهداً طبيعياً متكاملاً. لذلك قد يقول من يشاهده انه رائع وخلاب لكنه وفي الوقت نفسه يوحي بالمهابة. فأدركت مارسيا شعور الدوق بالرضى لامتلاكه مكاناً بهذه الروعة. لدرجة أنها لم تتمكن من وصف ما رأت بكلمات مهما تحمل من معنى. وقررت في نفسها أن ما تراه هو مشهد لا ينسى أبداً.

إن غرف جناح الدوق هي فخمة تماماً كما هو حال قصره كله. ففي غرفة نومه سرير عالٍ تظلله ستائر مخملية قرمزية معلقة من السقف، ومحفور على صدر مقدمة السرير شعار نبالة عائلة روس. وتقف قوائم السرير بشكل شجرة منحوتة بشكل مذهل. فتمتمت

مارسيا: «لا عجب إذاً في أنه يرى نفسه مهماً لهذه الدرجة.»

وكم خالجها شعور بالمهابة حين أخذت الكونتيسة تخبرها عن العصور التي مرت بها قطع الأثاث الموجودة في القصر، وعن طريقة جمعها، وأكدت لمارسيا أن هذه الموجودات يمكن اعتبارها مصانة لكونها في حوزة دوق روس.

ولدى خروجهما من جناح الدوق وعبورهما في ممر طويل، لاحظت مارسيا أن شاباً وسيماً يتقدم نحوهما. وعندما اقترب قالت الكونتيسة بتعجب: «ساردوس، أين كنت؟ لقد افتقدناك فيما كنا نتناول الشاي.»

«لقد قمت بجولة على الحصان منفرداً، لأنني أردت التفكير بهدوء.»

«لقد فاتك وصول إيرل غريتسوود. لذلك دعني أقدم لك ابنته.»

فاستدارت نحو مارسيا وقالت: «هذا ابن أخت مضيفنا ساردوس دو تيفيير.»

فمدت مارسيا يدها لمصافحة ساردوس. ولدى فعله هذا، شعرت مارسيا بشيء مريب في هذا الشاب.

وتساءلت عن سبب شعورها هذا، ثم أكدت لنفسها أنه لا بد وأن تكون مخطئة.

قال ساردوس بنبرة مداعبة: «لقد أخبرني أصدقائي الذين رأوك في لندن عن مدى جمالك. لكن يبدو أنهم افتقدوا الكلمات التي تعبّر عن جمالك بدقة أكبر.»



ورغم الكياسة التي قال فيها كلماته هذه، إلا أن مارسيا قد شعرت أن كلماته تحمل معنى غير الذي قاله، ذلك لأن نظراته تنضح خبثاً.

«شكراً لك. لكنني حذرت كثيراً من عدم الأخذ بالمجاملات التي أسمعها من الفرنسيين.»

فتفاجأ ساردوس بتعليقها هذا ثم قال: «وأنا علمت بأن النساء الإنكليزيات لا يعرفن كيف يسمعن المجاملات. وأنا واثق من أنك، ولكثرة سماعك المجاملات، قد سئمت.»

وكانت الكونتيسة تستمع بدهشة. لكنها تذكرت أنه لا يجب أن تترك ساردوس يفسد عليها خطتها في أن تجمع مارسيا و الدوق معاً في هذه اللحظات.

فقالت بحدة: «أنا لا أعرف سبب وجودك هنا في الممر، يا ساردوس، فأنا أصطحب الليدي مارسيا إلى غرفة الملابس.»

«كنت أبحث عنك، ظناً مني أنك إن لم تكوني منشغلة، قد نتحدث قليلاً.»

فنظرت إليه بعصبية وقالت: «في وقت لاحق. فهناك العديد من الضيوف في المنزل حتى انني لا أملك الوقت للاهتمام بشؤوني أنا.»

ثم وضعت ذراعها في ذراع مارسيا. تقدمت بها إلى باب غرفة الملابس خاصتها. وهي تدرك أن ساردوس كان محدقاً بها بحدة. ولدى فتحها الباب، كانت على ثقة من أن ساردوس قد عرف حقيقة سبب منح مارسيا هذه الغرف بالتحديد. لتغلق بعد ذلك الباب في وجهه متعمدة إبعاده

قائلة في نفسها ان وجود ساردوس في القصر هو أمر سيء.

إذ أنها لا تريد أي مسبب قد يمنع تقارب مارسيا والدوق ومصاحبة أحدهما الآخر، وحتى أكثر من ذلك.

«من هو هذا الشاب؟»

«إنه شاب مزعج. ساردوس هو ابن أخت الدوق ويظل في حالة دين مزمن.»

فدهشت مارسيا لسماعها ذلك وقالت: «لا بد وأنه يستمتع بمقاهي باريس التي كنت تحدثيني عنها، والتي هي لسوء الحظ مكلفة جداً. الأمر الذي جعله يهمل والدته وممتلكاته في النورماندي.»

فتنهدت وقالت: «إن خاله يموله باستمرار، لكنه غير ممتن بتاتاً، وأعتقد أن سبب وجوده هنا هو حاجته لمال ليسدد دينه.»

فقالت مارسيا في نفسها: «هذا ما توقعته أنا بالضبط.» ولعل هذا يفسر سبب الريبة التي شعرت بها عندما صافحت ساردوس.

«وما أنا واثقة منه، هو أنك بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة قبل العشاء. فأنا شخصياً، ولدى انتهاء رحلتي لا أشعر فقط بالتعب، بل أشعر أيضاً بأنني قذرة إلى أن أستحم فأرتاح.»

فدخلت إلى غرفة النوم عبر باب غرفة الملابس حيث كانت الخادمة تفرغ حقائب مارسيا وقالت لها: «إن الآنسة ترغب في الاستحمام قبل العشاء. وحتى ذلك الحين، تريد أن ترتاح قليلاً.»



ثم وجهت حديثها لمارسيا وقالت: «عليك أن تبدي في أجمل صورة، يا عزيزتي. سنقيم سهرة غداً ندعو إليها أجمل الشخصيات للتعرف إليك.»

«أشكرك. لكنك تعلمين أن ما أود رؤيته حقاً هو خيول الدوق.»

«ستفعلين ذلك. لكننا لا نستطيع أن ندعوهم إلى قاعة الولائم لمشاركتنا العشاء.»

جالت بنظرها في الغرفة لتتأكد من أن كل شيء في مكانه. وأحست مارسيا أن المكان برمته يعبق بجمال وروعة الحب. ثم بدلت ملابسها واستلقت على السرير. وقالت في نفسها انه يجب عليها مقاومة من هم لطفاء ويتمتعون بكياسة عالية أكثر من مقاومتها للقساة والفظين. «لقد بدأت أشعر بأن الشخص الوحيد الذي سيكون إلى جانبي هو الدوق.»

كان الدوق في الطابق السفلي يستمتع بالحديث مع الإيرل حول الخيول. وصرح للإيرل بكل المعلومات الجديدة التي عرفها خلال وجوده في هنغاريا. وعرض الإيرل لبعض التجارب التي قام بها في الإصطبلات خاصته في نيو ماركت والتي أثبتت نجاحها التام. وأخيراً اكتشفا بانزعاج أن الوقت قد حان لصعود كل منهما إلى غرفته لتغيير ملابسهما قبل موعد العشاء.

وبعد أن وقف الاثنان، قال الدوق: «يسرني وجودك هنا.»

«لطالما تمنيت أن أكون في ضيافتك. غير أن موانع عديدة كانت تعرقل سفري إلى فرنسا.»

«وبما أنك هنا الآن، علينا الاستفادة من ذلك.»

ثم صعدا معاً إلى الطابق العلوي حيث كان أحد الخدم بانتظار الإيرل ليرافقه إلى غرفته التي يغلب عليها طابع رجولي أكثر من تلك التي تشغرها مارسيا، غير أنها تحتوي على كل وسائل الراحة وكان مساعد الإيرل يحضّر الحمام له حيث كان الخدم يملؤون حوض الاستحمام بالماء البارد والساخن ناقلين إياها في أوعية من الطابق السفلي. فترك الدوق إيرل غريتسوود وذهب إلى جناحه. وخلال سيره في الممر رأى خادمة تخرج من غرفة كانت تشغرها والدته. فحزر أن من يشغرها الآن هو ضيفته الغير مرغوب فيها، ابنة الإيرل. فإذا بالغضب يملأه مجدداً.

فأدرك مباشرة أن هذا من فعل الكونتيسة المتعمد لأن تلك الغرفة ستشغرها مارسيا في حال أصبحت زوجته.

ثم دخل إلى جناحه وصفق الباب بقوة. وقال في نفسه انه من غير المعقول أن لا يستطيع الانفراد بنفسه.

فلقد غضب لأن عمته، رغم أنه يحبها كثيراً، لا يحق لها أن تتآمر مع الإيرل بهذه الطريقة العلنية لكي تجبره على الزواج.

فسأل نفسه: «لماذا لا يدعونني وشأني؟» ثم توجه نحو النافذة حيث المشهد لم يتوقف يوماً عن إثارة دهشته. وراح يتأمل المنخفض براحة وكروم العنب التي تزينه وقال انه ما من امرأة تستطيع أن تمنحه الفرحة ذاتها التي يشعر بها لدى حصوله على محصول وافر.



وأنه ما من امرأة قد تكون بروعة منظر النهر وهو يتسلل من بين الأشجار التي تصطف بشكل خيالي. ثم قال: «كل هذا هو لي أنا، ولن أشاركه مع أحد.»

فدخل مساعده ليساعده على تغيير ملابسه. وبما أن الدوق لم يتفوه بكلمة واحدة، فقد أدرك المساعد أن هناك ما يزعج سيده، لمعرفته الشديدة له. فظن أن سبب انزعاج الدوق لا بد أن يكون السيد ساردوس إذ أنه كلما ظهر، يكون من المؤكد وجود مشكلة ما. فقال في نفسه: «يا له من شاب مزعج. لا يمكنني أن أثق به مهما فعل.»

لكنه كان على قدر وافر من الأدب كي لا يقول ذلك للدوق.

فكل ما فعله، هو أنه ساعد الدوق، بعد ما استحم، في لبس ثياب المساء التي بدا فيها أنيقاً للغاية تماماً كما هو في ثياب النهار.

الأمر الذي جعل تجاهله صعباً، حتى لو كان في القاعة ألف رجل غيره. وهذا الكلام ينطبق أيضاً على مارسيا التي خرجت من غرفة النوم ترتدي أحد أجمل الأثواب التي اشترتها من لندن مع بداية الموسم. ولم تبالغ بأناقتها كما تفعل معظم الفتيات. الأمر الذي لم يمنع اقرباءها من تكراره على مسامعها، من أنها تختار ما يناسبها وما يلائم ذوقها ومزاجها هي فقط.

لذلك فقد كان مظهرها دائماً يتصف بالبساطة التي تمتاز بروعة وغرابة تزيد من جمالها. لكنها لم تكن تنظر إلى نفسها بهذه الطريقة. إذ أنها، وباعتقاد من صمم وخاط لها الثياب، تعرف أكثر منهم آخر ابتكارات الأزياء. لذلك، بفكرة

من هنا وأخرى من هناك، تمكنوا معاً من تصميم ما هو متميز ليصبح الثوب يشبه صورة رسمها رسام بارع أو قصيدة كتبها شاعر موهوب.

وبما أنها لم تفكر بالدوق بل في قصره، فقد ارتدت ثوباً أزرق ناعماً.

إنه تماماً كاللون الأزرق الذي استعمله بوشير وفراغونارد في لوحاتهم.

ولم تضع أي مجوهرات سوى عقد من اللؤلؤ الذي كان لوالدتها قبلها.

ثم نزلت إلى الطابق السفلي ولون شعرها الأشقر يتماوج مع أشعة الشمس المتسللة إلى المكان.

وما إن دخلت إلى القاعة المذهبة حتى تحولت جميع الأنظار إليها. وهي على يقين من ان الأعجاب يتراقص في عيون الجميع باستثناء واحد.

فقد، كان الدوق يقف في مكانه المعتاد قرب المدفأة. حتى أن مارسيا شعرت وهي تتوجه نحوه بأنهما على وشك المبارزة بسيوف غير مرئية.

وبعدئذ، وقبل أن تصل إليه، استدار الدوق وكأن أحداً كان يحدثه. لتجد مارسيا نفسها تواجه ساردوس وليس آرموند.

قال ساردوس: «ها قد التقينا ثانية، ليدي مارسيا، أتسمحين أن أقول لك بأن كل لوحات القصر تغار من جمالك؟»

ها هو يجاملها ثانية.

فساور مارسيا شعور بأن فكرة مفاجئة قد خطرت له لدى





رؤيته إياها تتجه نحو الدوق، فدفعته إلى ارتجال أي كلمات.

وتساءلت عن سبب إحساسها هذا دون أن تجد أي إجابة أو تفسير. وما أن انضم والدها إليها حتى شبكت ذراعها بذراعه.

قالت: «أعلم أنك أمضيت وقتاً رائعاً، يا أبي، وأنت تتحدث عن الخيول. لكنني افتقدتك.»

«وأنا افتقدتك، يا غاليتي. سنذهب غداً معاً لمعاينتهم و، بالطبع، لنحاول إيجاد شيء ما لننتقده، لأنه لا يمكننا أن نعترف بأنها بجودة خيولنا.»

فضحك الاثنان. وقد كانت تشعر مارسيا أن والدها كان ينظر إلى الدوق متمنياً لو كان هو الذي يقف إلى جانبها.

لكنه، وكما توقعت، كان يتحدث إلى الماركيزة الجميلة التي كانت ترتدي ثوباً ورديّ اللون زاد إلى بياض بشرتها وقتامة لون شعرها.

ولدى رؤيتهما الاثنين معاً، قالت مارسيا في نفسها إنهما مناسبان لبعضهما جداً.

وتساءلت عن السبب الذي يجعله، إن كان ينوي الزواج، لا يتزوج من ماركيزة جميلة مثلها.

إنه سؤال أثار فضولها، ولم تتمكن من منع نفسها عن سؤال الماركيزة إذا ما كانت متزوجة.

مما أثار دهشتها هو أنها خلال حديثها مع ساردوس وجدت نفسها تجلس إلى جانبه. فقالت في نفسها ان الماركيزة محقة في أن تجلس إلى يمين الدوق.

لكن كونها غريبة وبسبب لقبها أيضاً، شعرت أنه يفترض بها أن تجلس إلى يساره.

وها هي تجلس، حسب اختيار الدوق، بين ساردوس وشاب غريب آخر.

فإذا بها تشعر مجدداً بمشاركتها الدوق في رفض الزواج قطعياً من أي كان.

فأجاب ساردوس رداً على سؤال مارسيا: «بالطبع هي متزوجة. لكن الماركيز موجود في روما في الوقت الحاضر، في مهمة رسمية كلفته بها الحكومة.»

فادركت مارسيا أنه ما من أمل في محاولتها لتزويج الدوق والماركيزة.

ورغم تصرف الماركيزة بلباقة فائقة، إلا أنها لم تستطع السيطرة على عينيها.

فالطريقة التي كانت تنظر بها إلى الدوق، تجعل الأمر جلياً واضحاً حتى للأعمى ليرى مدى اهتمامها به.

أما الدوق فهو متماسك أكثر منها. رغم اعتقاد الجميع أنه من الصعب معرفة ما يكنه للسيدة الجميلة التي تجلس إلى يمينه وخطر لمارسيا أن الدوق والماركيزة صديقان. ورغم قضاء مارسيا لفترة من الزمن في لندن، إلا أنها لا تزال بريئة وعلى عكس كثير ممن هن في مثل عمرها، فإن مارسيا لم تتحدث قط عن الحب، ولم تهتم بالثرثرة لمعرفة أخبار الآخرين لاعتقادها أن هذا مضيعة للوقت، إلا إذا كان الخبر منشوراً في الصحيفة.

لذلك، لم تصغ مارسيا إلى همسات وثرثرات المحيطين



بها أو حتى اهتمت لنحيب الفتيات اللواتي هجرهن أحبائهن.

وفيما هي تفكر بالدوق، سألها ساردوس بحدة: «لماذا أنت موجودة هنا؟ أحدهم قال لي أنك غير مدعوة.»

«أخشى أن أعتبر متطفلة. لقد دعا الدوق والدي للحضور ومعاينة خيوله، وبما أن والدي رغب في مرافقتي له، فقررت الحضور في اللحظة الأخيرة.»

وفيما هي تتحدث رأت العبوس يرتسم على جبين ساردوس، الذي سألها: «ألم تلتقي بخالي من قبل؟»

فهزت رأسها نفياً، وقالت: «لكنني بالطبع سمعت عنه وعن خيوله.»

«أعتقد أنك تعرفين أن جميع أفراد العائلة يحاولون إقناعه بالزواج ثانية. هل تعتقدين نفسك مناسبة له؟»

كان ساردوس يتحدث بنبرة فظة جعلت مارسيا تنظر إليه بدهشة وتقول: «اؤكد لك أنني لا أنوي أن أتزوج الدوق أو أي شخص آخر.»

فبدا شيء من الارتياح على وجه ساردوس لكنها كانت تعلم أنه لا يزال مرتاباً قليلاً لأنه نظر إلى الدوق ثم إليها مجدداً وقال: «أعتقد أن الكونتيسة هي من دبرت الأمر.»

«دبرت ماذا؟ إذا كنت ستجعل من وجودي مشكلة، فإنه يمكنني أن أقول لك إنني أنوي أن أرجع مع والدي إلى انكلترا حين ينهي ما لديه من عمل هنا.»

فقال مفسراً ما سمعه: «لكنك قد تكونين عروساً مناسبة جداً لخالي آرموند.»

«لقد أعلموني، رغم احتمال عدم صحة ذلك، أنه لا ينوي الزواج إطلاقاً.»

«هذا ما يقوله هو. لكنه سيكون مضطراً إذا لم يكن الآن فلاحقاً لإنجاب وريث، مما يعني أنه لن يكون هناك الكمية ذاتها من المال التي يتمتع بها الأقارب، مثلي أنا.»

فتذكرت مارسيا ما قيل لها عنه، فقالت بشيء من السخرية: «لا يبدو لي أحد من الجالسين حول المائدة فقير أو محتاج.»

«المظاهر تخدع. إن أردت سماع الحقيقة، أقول لك إنني سأدخل السجن إن لم أسدد ما عليّ من ديون.»

فعلقت مبتسمة: «لا أصدق أن الدوق قد يسمح بحصول أمر كهذا.»

فقال بعفوية: «هذا ما أتمناه. لكنه يدقق كثيراً في الأمر حين اطلب أنا المال.»

كانت مارسيا تفكر فيما يجب أن تقوله حين قال الشاب الذي يجلس إلى جهتها الأخرى بشيء من التذمر: «أنت تتجاهلينني، يا ليدي مارسيا.»

فاستدارت وابتسمت له، قائلة: «إذن يجب علي تسوية الأمر فوراً. هل لي أن أعرف ما أكثر ما يهمك.»

«هناك أمران. أولهما الطعام الموجود على مائدة مضيفنا. والثاني خيولي، السبب الذي جعلك تأتين مع والدك.»

«أنت محق تماماً. فأنا أتوق لرؤيتهم غداً.»

انه من المثير والمسلي التحدث عن الخيول وللحظات عديدة، نسيت مارسيا وجود ساردوس الذي همس لها حين





انتهى العشاء: «إذا كنت تعنين ما تقولين، ولا ترغبين في أن تسجني هنا بقية حياتك، عليك أن تتوخي الحذر. فالجميع ينوي على تزويجك من خالي.»

«أعتقد أن هذا هراء.» وفي نفس الوقت شعرت بشيء ما في صوت ساردوس تسبب لها بالقشعريرة. وقد قالت في نفسها حين رأته للمرة الأولى ليس في لهجته أمر مريب فقط، بل شرير أيضاً. فشعرت بالارتياح حين ترك الجميع غرفة الطعام. فالعادة في فرنسا تملي على الرجال عدم البقاء إلى طاولة الطعام بعد انتهاء الأكل، كما هو الحال في انكلترا.

توجه الجميع إلى الصالون حيث كانت صحون الحلوى محضرة على طاولة كبيرة. إضافة إلى عازف بيانو محترف يعزف مقطوعات موسيقية هادئة لتكون مرافقة للأحاديث. الأمر الذي لم تعتقد مارسيا أن هناك ما هو أكثر منه متعة.

ولدى رؤيتها الكونتيسة تجول بنظرها على الجميع، تسلل إلى داخلها الإحساس بأن كل ذلك كان مدبراً لهدف واحد فقط.

وهو أن يزوجا مارسيا من الدوق.

# الفصل الرابع

وبعد ان رتبت الكونتيسة صحون الحلوى وتأكدت من ان كل في مكانه، وجدت الايرل يجلس وحيداً في الجهة الأخرى من الصالون. فتوجهت نحوه وقالت: «لا تقف. اعتقد انك لا تحب الحلوى.»

«لا، بل افضل التحدث اليك.»

«هذا ما كنت انتظره.»

فجلس الاثنان على أريكة كبيرة وثيرة، وهمست: «لطف منك تلبية دعوتي بالحضور إلى هنا. كنت قلقة جداً، ولم اكن اعرف إلى من ألجأ. حتى تذكرتك.»

«يسرني ذلك. لكن يزعجني. ان تكوني قلقة أو منزعجة فلطالما كنت بالنسبة لي انسانة هادئة وعاقلة.»

«هذا ما احاول المحافظة عليه. لكن الأمور تتعقد اكثر واكثر، وانا قلقة جداً على آرموند.»

«بسبب عدم زواجه؟»

«هذا جزء من كل. ولهذا السبب طلبت منك ان تحضر ابنتك الفاتنة معك.»

وكان على وشك ان يقول بأنه يواجه المشكلة ذاتها مع ابنته، لكنه أدرك ان ذلك لن يكون عملاً صائباً. لذلك من الأفضل ان ينتظر حتى يسمع كل ما في جعبة الكونتيسة لتقوله. ولشدة القلق الذي كان يبدو عليها، ادرك الايرل ان الأمر اخطر مما يعتقد.





ورغم كونها في آخر العقد الرابع، الا ان الكونتيسة كانت لاتزال امرأة جميلة. فقد تزوجت في سن مبكر وكان زوجها يكبرها بكثير. ولطالما اعتقد الايرل انهما غير مناسبان لبعضهما بسبب فرق السن. وعندما ترملت، أمل في ان تتزوج ثانية. لكن ما فهمه من الرسائل التي استلمها منها، هو انها وهبت حياتها لابن اخيها الدوق الذي لا زوجة له. ولدى رؤيته ذلك القلق في عينيها، قال: «انت تعلمين انني سأبذل كل ما بوسعي كي اساعدك، وبما اننا صديقين منذ زمن بعيد، اسمحي لي ان اناديك ايفون. تماماً كما كانت زوجتي تفعل.»

«يروق لي هذا. وشكراً لك ليونيل، لوقوفك إلى جانبي.»

«هذا ما اتمنى ان اكونه. لكنك لم تخبريني بعد ما الخطب.»

فنظرت نحو الباقين لتتأكد من ان احداً لن يسمعها وقالت: «اعتقد انك علمت بان ساردوس واقع في ورطة.»

«لم يفاجئني الأمر. فلطالما كان شاباً مزعجاً.»

«انه اكثر من ذلك! انه يهدر الاموال بطريقة اثارت جنون الجميع مما سيجعله، في حال استمر على هذا النحو، يتسبب بافلاس الدوق.»

فنظر الايرل اليها بدهشة وقال: «لا يمكنني تصور ذلك، على اعتبار ان الدوق هو واحد من اثرى الشخصيات في فرنسا.»

«فهو يملك اراضٍ عديدة اضافة إلى هذا القصر وما يحتويه من قطع اثاث رائعة ونادرة هي بمثابة كنوز

بالنسبة لنا. لكن فيما يتعلق بالمال فهو يوزعه بعدل وكرم علينا جميعاً.» فتنهدت ثم تابعت حديثها: «وأياً كان، فقد حصل ساردوس على ما قدره حصته وحصة والدته مجتمعتان.»

«هذا مشين! اتمنى ان يكون ابن اخاك قد تصرف معه بحسم.»

«أخبره آرموند في المرة السابقة، حين كان هنا، انه اذا ما كرر مجيئه لطلب النقود ثانية، فانه لن ينال فرنكاً واحداً، مما جعلنا نتمنى ان يجوع ساردوس ويفتقر من أن يحرم بقية العائلة مما هو حق لها.»

«وهل ستخبرنيني انه غرق مجدداً في الدين؟»

«بل أسوأ من هذا.»

سألها مستفهماً: «كيف؟»

«لي اصدقاء في باريس يرصدون لي تحركات ساردوس.» سكتت ونظرت إلى الايرل بعينين متوسلتين ثم تابعت: «انا لا اتجسس لاجل اخذ العلم فقط، بل لانقذ آرموند من أي مواقف حرجة أخرى.»

«افهم ذلك... بالطبع افهمك!»

«قبل بضعة اسابيع، علمت ان ساردوس في ورطة كبيرة فهو مدين بآلاف وآلاف من الفرنكات والدائنين يلاحقونه مطالبين بنقودهم.»

فتأكد الايرل من ان ذلك ما كان يشك بحصوله. فلقد سمع هو أيضاً عن علاقات ساردوس مع الاصدقاء الذين ينفقون على أنفسهم من ماله.



تابعت الكونتيسة: «هذه اخبار سيئة. انما هناك ما هو أسوأ.»

«من أي ناحية؟»

«لقد وصلني من مصدر موثوق ان ساردوس كان يؤكد لدائنيه بأن خاله لن يعيش طويلاً. وبعد وفاته، وبما انه ليس هنالك من وريث، فان المال والاملاك ستكون من حق والدته.»

فحدق الايرل بها بذهول وقال: «هل حقاً ما تقولين؟»

«هذا ما لم يخطر لي ببال قط. لانني في الواقع كنت اكيدة من أن آرموند سيتزوج عاجلاً أم آجلاً، مما جعلني لا افكر فيما قد يحدث في حال وفاته. فهو، رغم كل شيء، لم يتم الثلاثين بعد.»

«اعرف ذلك. لكن من المؤكد ان هنالك وريث افتراضي في حال لم ينجب وريثه الشرعي.»

«سينتهي اللقب عملياً مع وفاة آرموند. الأمر الذي جعلنا قلقين جداً.»

توقفت للحظات ثم قالت: «كان أخي، والد آرموند، يحب ان يكون له عائلة كبيرة، فهو، وكما تجري العادة، تزوج وهو شاب صغير من فتاة احببناها كلنا.»

فهز الايرل رأسه وتابعت الكونتيسة: «بعدما انجبت طفلة، علمت من الاطباء انه من الصعب عليها انجاب طفل آخر.»

فعلق الايرل بتعجب: «ليس لدي ادنى فكرة عن هذا الأمر. فلطالما اعتقدت ان الدوق هو نتيجة زواج اخيك الأول.»

فهزت رأسها نفياً وتابعت: «لا. لقد توفيت اليونور مصابة بحمى مفاجأة بعد اربعة سنوات من زواجهما.»

كان الايرل يصغي باهتمام فيما الكونتيسة تتابع حديثها: «لحسن حظنا ان أخي قد تزوج مرة ثانية واحبينا دوروثي كثيراً، فهي الطف واجمل امرأة، تماماً كما زوجتك.»

«وماذا جرى؟»

تنهدت ثانية وقالت: «انجبت آرموند بعد مرور سنة على زواجهما، واخالني اتصورك تدرك مدى سعادة أخي عندها. اذ ان آرموند لم يكن الوريث الوحيد وحسب. بل احب طفل إلى قلوبنا جميعاً. فمنذ لحظة ولادته، كان آرموند بمثابة كل ما يحتاجه الأب والأم. ومن الطبيعي ان ترغب دوروثي بانجاب اطفال آخرين غيره.»

«ألم يكن ذلك ممكناً؟»

«لقد حصل حادث مفجع جداً. فبعد مرور سنة من زواجهما، وقعت دوروثي عن ظهر الحصان الذي داس عليها.»

ارتسم على وجه الايرل علامات الذعر والأسى الا انه لم يقاطعها: «ارسل أخي في طلب افضل الاطباء المختصين من كل انحاء البلاد، لكن لم يكن هناك من شيء يستطيعون القيام به. مما جعلها تعاني لفترة طويلة من آلام مبرحة، ليزول ذلك تدريجياً حتى اختفى أثره نهائياً، لكن المأساة هو انه لا يمكنها انجاب اطفال.»

«انها قصة مفجعة، اتعلمين، ليس لدي ادنى فكرة عن ان شيئاً من هذا القبيل قد حدث.»



تابعت الكونتيسة كلامها بحزن: «لم نشأ التداول بهذه القصة حتى لا يتضايق أخي. وفي الواقع، بما ان آرموند كان يجيد كل ما يطلب منه فعله، فإنه لم يفتقد يوماً للأخوة والاخوات الذين لم يكونوا له يوماً.»

«افهم ذلك.»

وخطر للايرل كم ان آرموند فارس بكل معنى الكلمة.

قالت الكونتيسة: «في الحقيقة، بدا كل شيء على مايرام إلى ان حلّت بنا كارثة زواج آرموند التي كانت غلطة أخي فعلاً.»

«لماذا تقولين هذا؟»

«لأنه كان على عجلة من أمره كي ينجب آرموند وريثاً لدرجة انه اجبره على الزواج في سن مبكر جداً. وبما ان أخي قام باختيار العروس، فقد ادركنا مؤخراً، أنه لم يتحقق بما فيه الكفاية عن الفتاة.»

فاطلقت الكونتيسة تنهيدة عميقة وقالت: «كيف كان لنا ان نتخيل ـ ان نحزر ـ انها مجنونة؟ ذلك لان والديها الماركيز والماركيزة كانا على علم بذلك، وفي نفس الوقت يتوقا لان تكون ابنتهما دوقة روس.»

«ان ذلك لعمل خبيث منهما، واتمنى ان يكونا قد عانيا كثيراً عندما كشفت الحقيقة.»

«لقد حصل ذلك لهما فعلاً. لكن الأثر وقع على آرموند، فقد زرع في قلبه كراهية للزواج وتصميم علي ان يفعل أي شيء سوى التورط في أمر مخيف كهذا مجدداً.»

علق متعاطفاً معه: «انها ردة فعل طبيعية.»

فقالت بانزعاج: «وها نحن الآن نعاني من تلك المشكلة مع ساردوس.»

«لا يمكن لك ان تصدقي بانه قد يقدم على قتل خاله لكي يحصل على المال الذي هو بحاجة ماسة إليه؟»

«لا يمكنني احتمال التفكير بهذا. لكن لكونه شريراً، اشعر بانه قد يقدم على فعل أي شيء ليحصل على مزيد من المال، بعد ان انفق ما يناهز ثروة باهظة.»

«وما رأي والدته في كل ما يفعله؟»

«انها تعاني من أزمة صحية تجعلها لا تترك منزلها في النورماندي. في الحقيقة، يقول الاطباء ان وضعها الصحي غير ملائم للسفر. كل ما نعلمه هو ان ساردوس يسلبها كل المال الذي يعطيها اياه آرموند. اضافة إلى انه لا يذهب إلى المنزل الا اذا كان هناك نقود يمكن له ان يأخذها من والدته.»

«كم هذا مشين فعلاً! لا بد وان يكون هناك ما يمكن فعله تجاه هذا الشاب!»

«اوافقك الرأي. الصعوبة تكمن في ما يمكننا فعله؟ اذا كان ولا بد ان يحصل مكروه لآرموند، سيكون المال والاملاك لاخته من ابيه.»

تنهد الايرل بقوة وتابعت الكونتيسة: «لقد كتب أخي وصيته مباشرة بعد ولادة آرموند يقول فيها، ان كل الممتلكات، كما هي العادة في فرنسا، تتحول إلى الدوق المباشر بعده. وبما انه ليس هناك من وريث، سيكون مترتباً على ذلك تقاسم المال بين ابنته من زواجه الأول، وبين الاطفال الذين من المفترض ان يكون آرموند قد انجبهم والذي يجب ان يكونوا من الاناث.»





ففكر الايرل بما سمعه ثم قال: «آه، فهمت. هذا يعني انه، وفي الظروف الراهنة، اذا توفي الدوق قبل ان يتزوج وينجب وريثاً، فإن اخته من ابيه سترث كل شيء.»

«أجل، كل شيء! وهذا ما قاله ساردوس لدائنيه.»

«أعلم ان ذلك يرعبك، لكنني لا اعتقد انه في ايامنا هذه وفي عصرنا هذا قد يخاطر ساردوس بما يتلقى عقوبته الاعدام، لانه اذا ما قتل خاله، فإن هذا ما سيحصل.»

«هذا في حال اكتشف الأمر.»

فعلق الايرل محتجاً: «قد يكون مبذراً ومسرفاً، وكما تقولين، قاسي القلب ومهمل بحق والدته، لكن لا يمكنني ان اصدق ان رجلاً في مثل سنه قد يخاطر بما يجعله يعتقل بتهمة القتل!»

فاذا بالكونتيسة ترتجف لسماعها ذلك، تابع الايرل كلامه قائلاً: «اذاً على الدوق ان يموت في ظروف تثير الشكوك، شكوك تسلط الانوار على الفاعل الذي قد يستفيد من موته.»

«اقدر لك ما تقوله، وفي نفس الوقت، انا خائفة، خائفة جداً، فانا لم احب ساردوس يوماً، ولطالما ارعبتني الطريقة التي يعامل بها والدته.» ثم نظرت إلى الايرل وتابعت كلامها: «انا اعرف انه سيقسم بكل ما نريد انه لن يغرق في الدين ثانية، لكنه يحنث يمينه باستمرار.»

«اوافقك الرأي في ان الموضوع كله رهيب. وانا اتساءل عما يمكنني فعله حيال ذلك.»

«لقد فعلت ما طلبته منك تماماً. لقد اصطحبت ابنتك معك.

ومن المؤكد ان آرموند سيرى كم هي جميلة وإلى اي حد سيكون زواجهما مناسباً للعائلتين؟»

تردد الايرل ثم قال: «علي ان اكون صريحاً معك، يا ايفون، وأخشى ان يزعجك ذلك، لكن مارسيا مصممة على عدم الزواج من الدوق، أو أي رجل آخر.»

فحدقت الكونتيسة به وسألته: «مصممة على الا تتزوج؟»

«لقد رفضت مارسيا كل شاب تقدم لها في لندن، بما فيهم، وهذا حصل مباشرة قبل قدومنا إلى هنا، دوق باكستيد.»

«الا تظن ان آرموند سيثير اهتمامها؟»

اجابها: «آمل فقط في ان تغير رأيها، لانها اخبرتني انه ما من أمر سيجعلها تتزوج الدوق ولن تسمح لي ان اختار لها زوجاً رغم معرفتها انني وفقاً للقانون الانكليزي يمكنني ان ارغمها على الزواج من أي شاب أراه مناسباً كصهر لي.»

فشهقت الكونتيسة وقالت: «آه، ليونيل، اذن كل محاولاتي غير مجدية؟ فإنني لا اتوقف عن التمني في ان يغرم هذين الاثنين ببعضهما، ذلك لانه ان اصبح هناك وريث، فإن ساردوس لن يستفيد في شيء من قتل آرموند.»

«يبدو لي ذلك صعباً بعض الشيء، واكرر انني لا اصدق ان يعرض ساردوس رقبته لحبل المشنقة كي يقتل الدوق ويرثه.»

«هذا إذا لم يجد من وسيلة يقوم بها بذلك دون ان يكشف امره!»



ولقد ادهش الايرل بالنبرة المؤكدة التي كانت ايفون تتحدث بها. فقال في نفسه انه لا بد وان يكون مرد ذلك هو قلقها الشديد، لذلك قال مطمئناً: «اعتقد ان الأمور ليست بالسوء الذي تتصورينه، واتمنى ان يؤدي اهتمامهما المشترك بالخيول إلى تقاربهما، اتعلمين، انا لا اجد شيئاً افضل من ان تتصاهر عائلتانا.»

«انه امر ارحب به، لطالما كنت انت واليزابيت زوجين رائعين، وكانت عائلتكما سعيدة. فأنا لم انس قط جو الحب والهدوء الذي كان يعم منزلكما.»

تأثر الايرل بكلامها ثم قال: «اشكرك، ايفون، اظنك تعرفين كم اشعر بالوحدة دون زوجتي، ولا يمكنني ان اصف لك سعادتي بصحبة مارسيا لي، ورأيتها تكبر امام عيناي بجمال خلقة وروح رائعين.»

«انها الزوجة التي احلم بها لأرموند. آه، يا ليونيل، اتظن ان ذلك سيتم.»

«أعرف ان ما من أحد يحلم ويتمنى ذلك أكثر منك. وما علينا، يا عزيزتي، سوى ان نأمل بأن تجري الأمور على مايرام.»

استمتعت مارسيا بالحديث مع الشابين والسيدة الفاتنة الذين كانوا يجتمعون في ركن من الغرفة وسرها اكثر اعلان الكونتيسة انه تحضيراً لسفر بعض الضيوف في الغد، يجب الخلود إلى النوم باكراً.

قالت مارسيا لوالدها: «انا متعبة، يا أبي.»

«وانا كذلك، يا عزيزتي.»

فتوجه الاثنان معاً نحو الردهة ولدى وصولهما عند عتبة السلم، لاحظا ان الدوق، والماركيزة خلفهما. فقال الدوق للايرل: «ليلة سعيدة يا سيدي. وغداً، سيكون هناك عرض لخيولي كي تتمكن من معاينتهم.»

فقال الايرل: «انا اتوق لذلك.»

ثم قال الدوق مخاطباً الاشخاص الذين يحيطون به: «بالطبع يمكن لأي شخص يحب ركوب الخيل في الصباح ان يقوم بذلك. وسنجتمع كلنا عند حقل سباق الخيل حيث سيبدأ العرض في الساعة الحادية عشرة.»

تناثرت همسات تعبر عن سرورها لذلك. وعندما صعدت مارسيا ووالدها السلم قالت له بصوت منخفض: «هل هذا يعني انه يمكننا ركوب الخيل حقاً؟»

«بالتأكيد! يمكنك ركوب الخيل في أي وقت هنا. لكن عليك ان تختاري فرساً جيداً، وبعد ذلك سيتم استعراض خيول الدوق ومن ثم سباقات يشارك فيها الموجودين، ويلي ذلك سباق وثب عن الحواجز...»

اثار ذلك حماس مارسيا وقالت: «هذا ما احب فعله، يا أبي، واتمنى ان اشرفك في السباق.»

«ساغضب كثيراً ان لم تفعلي هذا!»

وعند وصولها إلى باب غرفتها، قبلت والدها بحنان كبير وقالت: «ليلة سعيدة، يا أبي. يسرني جداً وجودي هنا في هذا القصر الرائع.»

«لقد توقعت ان يعجبك. لقد مضى على آخر زيارة لي إلى



هنا سنوات عديدة، جعل الدوق من زيارتي هذه ممتعة اكثر من زيارتي الأخيرة لوالده.»

ثم توجه إلى غرفته ودخلت مارسيا إلى غرفتها. فقد كانت في الواقع متعبة جداً ونامت باسترخاء تام على ذلك السرير الكبير والوثير.

وعندما استيقظت من الصباح التالي، كانت اشعة الشمس، تتسلل إلى داخل الغرفة عبر الستائر.

فجلست في سريرها ونظرت في الساعة لتجد الوقت مبكراً جداً. توجهت عندئذ إلى النافذة وراحت تتأمل المنظر الخلاب الذي تطل عليه الغرفة. فشعرت انه من الصعب لها ان تبقى في السرير رغم طلبها من الخادمة ان توقظها في السابعة.

وبما ان والدها قد اخبرها بامكانية من شاء ركوب الخيل وفي أي وقت، بدا لها انه ما من مبرر لعدم قيامها بذلك. فارتدت ثيابها بسرعة كما تفعل في منزلها. ولان الطقس حار، ارتدت مارسيا ثياباً مصممة لركوب الخيول ومصنوعة من قماش رقيق يتبع صيحات الموضة، ولم يكن ضرورية ارتداء السترة المصممة لها. وكذلك لم تضع قبعة لانها لا تفعل ذلك في منزلها.

لم تكن الساعة قد قاربت السادسة عندما نزلت إلى الطابق السفلي حيث كان الخادمات متأزرات وينظفن الردهة. وبدا واضحاً ان تحيتهم السريعة هي لعدم توقعهم استيقاظ احد الضيوف في هذا الوقت المبكر.

كذلك كانت مارسيا اكيدة من ان ما من احد من الضيوف قد استيقظ بعد.

وعندما وصلت إلى الاسطبل كان السياس قد بدأوا بتنظيف المكان ويزودون الخيول بالاكل والماء. وكما توقعت تماماً، الاسطبلات مجهزة بطريقة مدهشة، مثلما هو حال القصر، فدفعها ذلك للقول في نفسها ان جودة شيء تنم عن جودة الآخر.

ثم سألها احد السياس عن الخيل الذي تود ركوبه فأجابت: «أود ان امتطي هذا!» وأشارت إلى أحد الاحصنة.

«انه اكيلين، يا آنستي، احد خيول سيدي الدوق المفضلة.»

«انا واثقة من انه لا يمانع ان قمت بجولة صغيرة عليه.»

وبما ان السائس لم يكن معتاداً على المجادلة كما أمر، فقد هيأ اكيلين للركوب واخرجه من الاسطبل.

بعد ان امتطت مارسيا الخيل، قالت في نفسها انه سيكون من الصعب على والدها ان يجد مثيلاً له. ولم يكن صعباً عليها ان تجد الطريق المؤدية إلى المنخفض. فإذا باكيلين تنطلق بسرعة جعلت من شعرها يتحول من املس إلى متجعد. ولم تشعر مارسيا بالسرعة التي كان ينطلق بها الخيل إلى ان اصبحت تتنفس بصعوبة، فخففت سرعتها.

وها هي الآن تتجول متأملة المرتفعات الخضراء على جانبي الطريق لترى في أسفل المرتفع كروم العنب والنهر.

فصرخت: «يا لروعة ما أرى، انه مدهش! انه اجمل مكان رأيته في حياتي!»

عندما اكتشفت المسافة التي اصبحت عندها، استدارت بتردد وعادت نحو القصر، اذ ان والدها سيكون الآن في



الطابق السفلي حتى يحين وقت الفطور، وان رغب في ركوب الخيل بعد ذلك ولم يجدها فانه سيشعر بالانزعاج.

وبينما هي تتنزه، رأت احدهم يتوجه نحوها.

ولما اقترب لم تتفاجأ كثيراً لرؤيتها الدوق. ولأول مرة في حياتها تساءلت في نفسها ان كانت قد ارتكبت غلطة. هل من خطب ان طلبت خيلاً قال لها السائس انه احد خيوله المفضلة؟ فلم يسعها فعل شيء سوى التقدم نحوه.

وكان عليها ان تعترف ان طريقة ركوبه الخيل كانت افضل من طريقة اي فارس آخر، وان الصورة التي كونها هو والخيل الاسود الذي يمتطيه رائعة اضافة إلى التلال الصغيرة التي تقف إلى احد جانبيهما، والاشجار والقصر يظهران عن بعد مسافة خلفهما.

اقترب الدوق منها اكثر. وعندما أصبح مواجهاً لها، خلع القبعة محيياً: «صباح الخير، ليدي مارسيا. لقد تفاجأت حين علمت بسرقتك خيلي المفضل!»

«لقد توقعت قولك هذا. ارجوك، اعذرني يا سيدي، لكنني لم استطع مقاومة اكيلين. حتى وان غضبت، فإن الأمر يستحق هذا لأنني استمتعت كثيراً بركوبه.»

فخفت ملامح القساوة التي كانت واضحة على وجه الدوق وكأنه لحب ما قالته. ثم سألها: «هل انت واثقة من قدرتك على السيطرة عليه تماماً؟»

«انت تهينني، وتهين والدي كذلك. فانا اركب الخيل منذ ان كنت في المهد، وسيغضب والدي ان علم بامتلاكك ما قد لا يلائمني!»

فضحك وكأنه لم يستطع تمالك نفسه. ثم قال: «بما انني

لا انوي اهانة والدك، والذي احبه كثيراً، اقول انه يمكنك فعل ما تودين.»

«اشكرك، كنت على وشك العودة إلى القصر، لأنني اعتقد ان والدي يود ركوب الخيل بعد تناول الفطور بصحبتي.»

«الا تظنين بانك ستكونين متعبة جداً بعد جولتك الصباحية هذه؟»

ارادت ان ترد عليه بحدة، لكنها عادت وعدلت عن ذلك لادراكها انه يحاول اثارة غيظها، فقالت: «ساجيب عن سؤالك هذا عند نهاية هذا اليوم. انا اتحرق شوقاً لمسابقتك، يا سيدي، أو لنجعله سباق طويل عبر الحقول؟»

«لعلنا نقوم بالاثنين.»

«هذا وعد. وسالزمك على تنفيذه.»

كان الخيلان يعدوان جنباً إلى جنب. فقالت مارسيا في نفسها: لعله يكون الوقت المناسب لكي تصارحه برأيها في الزواج. ترددت للحظات، لشعورها بالحرج. لكنها عادت وقالت انه كلما سارعت في وضع النقاط على الحروف، كلما كان ذلك افضل.

فقالت: «لم لكن اتوقع لقاءك هذا الصباح، يا سيدي، لكن بما انك هنا الآن، هنالك أمر اريد اطلاعك عليه. وانا سعيدة لهذه الفرصة المتاحة حالياً.»

فرفع الدوق حاجبيه تعجباً ثم قال: «كلي آذان صاغية.»

«اعتقد انه يجب ان اخبرك بان عمتك الكونتيسة قد طلبت من والدي ان يصطحبني معه إلى هنا لامكث في القصر لبعض الوقت، واريد منك ان تتوقع سبب فعلها لهذا.»

دون ان تنظر إلى الدوق، كانت واثقة من انه قد جفل





لسماعه ذلك الكلام، وانه علا وجهه تعابير غاضبة. وفكر للحظات قبل ان يطلب اليها الاهتمام بشؤونها فقط، غير انه قال في نفسه ان ذلك سيكون فظاً. ففضل ان يتظاهر بعدم فهمه لما تقول. فقال: «اخشى انني، يا ليدي مارسيا، لا افهم عما تتكلمين.»

«إذاً أكون صريحة معك، يا سيدي، واخبرك بان عمتك قد اوحت لابي بانني عروس مناسبة لك.»

انحبست انفاس الدوق اذ انه لم يكن يتوقع سماع هذه الكلمات الصريحة جداً، ومما زاد في حاله هذه هو انه لم يكن واثقاً من قدرته على التعليق على مثل هكذا موضوع.

تابعت مارسيا: «ما اردت قوله لك هو انني، شخصياً، لا انوي الزواج منك أو من أي رجل آخر.»



ذهل الدوق لسماعه ما قالته مارسيا، فهو معتاد على ان يتوسلون اليه كي يتزوج. فافترض ان أي امرأة شابة في فرنسا أو في اي بلد آخر قد توافق بسهولة ان تكون زوجته. ولهذا السبب كان على ثقة من ان سبب وجود الليدي مارسيا في قصره هو بهدف الزواج. لكنه قال في نفسه انه سيكون من الصعب مصارحة الايرل، في حال طرح الأمر، بانه لا ينوي الزواج من ابنته.

غير ان ما لم يتوقعه آرموند هو ان لا تكون ابنة الايرل لا ترغب بالزواج منه.

لقد فاجأه ظهور مارسيا في قصره. الا انه حزر بسهولة ان ذلك مدبر وحقيقة سبب هذا الفعل.

لذلك، لم يستمتع كثيراً بوقته مع الماركيزة كما كان يتوقع، رغم كونها جذابة وهادئة. ورغم رؤيتها دائماً من

قبل، الا انه ولسبب ما يجهل تفسيره، كان هناك شيء مفقود، ناقص، مما جعله يرجع إلى غرفته في وقت اسرع مما توقعه، والذي ادى إلى لومها له لفعله هذا.

إذ قالت هامسة: «كيف تريد ان تتركني، عزيزي آرموند، ولقد حالفنا الحظ لنكون معاً فأوجني في روما، ولا يوجد من يتطفل أو يزعجنا؟»

«اعذريني ان خيبت ظنك، لكن لدي الكثير من الامور لارتبها للغد، ولطالما انتظرت حتى يحل ايرل غريتسوود ضيفاً علي.»

«لكنني انا أيضاً... ضيفتك.»

«اتعتقدين انني قد انسى ذلك؟»

كان هذا ما تريده الماركيزة بالضبط، لذلك وجد على وجهها علامات الرضا بما هي عليه الآن.

فهي تدرك انها مهما فعلت ومهما قالت واعترضت، فإن الدوق لا يفعل الا ما يناسبه هو. فتركها عندئذٍ وحيدة في الصالون وعاد إلى غرفته.

ورغم توقعه ان يغرق في النوم فور استلقائه في السرير، الا ان ذلك لم يحصل. فقد اخذ يفكر باستياء كيف ان عمته قد دبرت مع الايرل حضور مارسيا للقائه، لاعتقاده ان ذلك سيفسد عليه والايرل متعة مناقشة ومعاينة الخيول التي يتشاركانها.

فقال في نفسه: «يا لها من فتاة؟ ما كنت لاتزوجها حتى ولو كانت افروديت بعينها، لكنني لا انوي قول ذلك لوالدها.»

الا انه الآن، والذي لم يخطر له ببال قط ان تخبره الفتاة



التي كان يكرهها حتى قبل ان يتسنى له الكلام، انها لا تنوي الزواج منه، ولكونه دهش لما قالته، فقد طرح أول سؤال خطر له: «لماذا لا تنوين الزواج مني؟»

«ظننت ان الاجابة عن هذا السؤال بديهية، انا لا احبك، وانا لا انوي الزواج من أي رجل لا احبه.»

فحدق الدوق بها وقال: «لكن من المؤكد انها ستوافقين على رجل يوافق عليه والدك؟»

«لقد سبق واخبرته بحسم قاطع انني لن اتزوج من احد ان لم اغرم به. غير انه مصر على ان اتزوجك، لذلك اطلب منك ان تعلن بوضوح تام عدم رغبتك بالزواج مني.»

فزاد من ذهول الدوق ليقينه ان أي فتاة في أي بقعة من فرنسا قد تقفز فرحاً اذا ما عرض عليها الزواج، حتى ان والديها سيكونا متحمسين اكثر منها.

فلطالما كانت النساء ترضخن لرفضه لهن مبتسمات راضيات الا ان هذه الفتاة الشابة، والذي اعترف بتردد انها رائعة الجمال، لا تنوي ان تكون دوقة روس. لكنه كان مذهولاً لدرجة انه عجز عن اطلاق ادنى تعليق في هذا الخصوص.

فقال بصوت عالٍ: «انا احترم مشاعرك، بالطبع، يا ليدي مارسيا، لكنني اجدها إلى حد ما قاسية.»

فضحكت وقالت: «على العكس، اذ انك كنت غاضباً لدى وصولي، وكنت واثقة حينئذ من انك لم تطلب من والدي اصطحابي إلى هنا.»

ثم نظرت اليه بعينين براقتين فيما هي تقول: «لقد اعلنت بوضوح منذ ذلك الحين انك لا ترحب بوجودي، لذلك فقد كنت

بانتظار أي فرصة مناسبة كي اخبرك انني اشاركك ذلك الرفض.» ثم سكتت وتنهدت لتقول بعد ذلك بتوسل: «اتوسلك ان تساعدني على ان نتبر طريقة ننقذ بها انفسنا قبل ان نجد انفسنا مضطرين إلى الزواج، فلا نتمكن من الخروج من هذا المازق.»

ضحك الدوق رغم كون ذلك غير متوقع وقال: «لا يمكنني ان اصدق ما اسمعه. فلطالما طلب مني، بتوسل، وبضغط لدرجة انني قد اجبرت على الزواج! وها انت الآن تقولين لي ان الأمر ذاته يحصل معك.»

«انه فعلاً كذلك! ان والدي معجب بك لدرجة انه يعتقدني قد فقدت صوابي لعدم قبولي الزواج منك.»

«أؤكد لك ان موقفك هذا لصالحي تماماً، لكنني اعتقد انه مبالغ به نوعاً ما.»

«أنت مسرور لعدم تورطك في هذا. لكنك ستجد والدي وعمتك ملحين جداً حين يعرض الأمر عليك. الشيء الوحيد الذي يمكننا ان نفعله هو ان نحارب ذلك معاً.»

«اوافقك الرأي. وانا واثق من صحة ما تقولينه بأن الأمر لن يكون سهلاً.»

«بل سيكون صعباً جداً، لكن اذا ما تمكنا من ان نوضح بحسم ان احداً منا لا ينوي الموافقة على ما يرغبان به، فسأتمكن من التمتع بخيولك دون ان اشعر بالحرج كلما وقع نظر احد من افراد عائلتك علي.»

«وانا سأشعر كذلك بالضبط فكلانا يعرف ان الصمت يعم أي مكان ندخله معاً، وكأنهم كانوا يتحدثون عنا.»

«سيفعلون ذلك بالتأكيد، لذلك ارجوك، يا سيدي الدوق،



عدني بانك ستخبر والدي بحسم، بطريقة لا يسيء معها الفهم، انك لا تنوي طلب يدي للزواج.»

«اعدك! وفي نفس الوقت، اعتقد ان هذا هو أغرب حديث دار بيني وبين شخص آخر في حياتها كلها!»

«إذن، اتفقنا. سأسابقك الآن إلى نهاية الحقول.»

ولم تنتظر حتى يوافقها على ذلك. بل انطلقت على ظهر اكيلين بسرعة كبيرة وبمهارة فائقة لدرجة ان الدوق لم يدركها لبعض الوقت. وعندما تبعها، قال في نفسه، انها وبكل تاكيد، اكثر الفتيات اللواتي التقيتهن تميزاً. ومن وجهة نظره، اكثرهن رقة.

# الفصل الخامس

وبينما كان الدوق ومارسيا يتسابقان، كانت الأخيرة تضحك فرحاً ومتعة.

ولم تكن تعي كم كانت تبدو جميلة بعينيها البراقتين، وخديها المتوردين وشعرها المتطاير خلفها.

استدارت له وقالت: «لن اقول ان الحصان الافضل قد فاز، لأنني اعتقد ان حصانك يمتاز بذلك أساساً.»

«وأظنك تعتقدين ذلك بالنسبة إلى صاحبه.»

«لكن بالطبع» ونظرت باتجاه القصر وتابعت: «كيف يمكن لك ان تكون غير ذلك وأنت تملك الأفضل من كل شيء؟ بالرغم من ذلك، كانت مربيتي دائماً تقول لي محذرة: الفخر يسبق الفشل!»

اعتقد ان مربيتي ذكرت امراً شبيهاً بهذا. لكن لا يصعب الاعتراف بانك تجيدين ركوب الخيل اكثر من أي امرأة أخرى التقيتها.»

«سيسر والدي بسماعه هذا الكلام.»

ثم شهقت ووضعت يدها على فمها محاولة منع نفسها من الكلام. ثم قالت: «حذار! اذا قلت شيئاً من هذا القبيل لوالدي، فانه سيظن انك بدأت تعجب بي.» ثم فكرت، لتتابع بعد ذلك منبهة: «لقد خطرت لي فكرة، لا ينبغي ان يعرف احد بلقائنا، وعليك ان تتجاهلني حين نعود إلى القصر.»



«هل تعلمينني كيف اتصرف، يا ليدي مارسيا؟»

«أجل. سأفعل أي شيء كي لا أكون كالدمية التي يحركونها كيفما يشاؤون.» ودون ان تلاحظ الدهشة على وجه الدوق تابعت: «وما لا يجدر بنا فعله هو ان نعود سوياً إلى القصر. سأذهب انا من جهة، وأنت تذهب من جهة أخرى.»

«لقد بدأت الأمور تتعقد الا انني أفهم ما تعنين.»

«سأسرع في العودة الآن وانضم إلى والدي لتناول الفطور. وعندما تنضم الينا لاحقاً، يفضل الا يعلم احداً بالسباق الذي قمنا به.» فهي تقول ذلك وفي ذهنها أن أحداً لم يرهما. ثم تذكرت فجأة انه لن يكون صعب لأحدهم، أن كان ينظر من النافذة، ان يراهما يتحدثان إلى بعضهما البعض، ولأن الفكرة أزعجتها قالت بسرعة: «سأذهب الآن. لكن قبل ان افعل ذلك، هل لي أن اختار أي حصان سأمتطي خلال السباق الذي سيقام بعد ظهر اليوم؟»

«لا، أنا سأختار لك.»

نظرت مارسيا في عينيه لترى اذا ما هو جاد في ما يقول، ثم قالت: «إذا كان حصاناً سيمنعني من الفوز في أي من السباقات، فانني سأتعادل معك بطريقة أو بأخرى!»

ولم تنتظر رده بل انطلقت مسرعة فيما الدوق يحدق بها، قائلاً في نفسه انها مسلية ومختلفة عن أي فتاة أخرى قد سبق له والتقى بها. ثم عاد أدراجه حسب الاتفاق، فهو يعرف الطريق التي سيسلكها خلال عودته

إلى القصر والتي تختلف عن تلك التي سلكتها مارسيا.

أودعت مارسيا أكيلين مكانه في الاسطبل، وعادت إلى القصر لتجد والدها في غرفة طعام الفطور وبرفقته رجال آخرين. اما بالنسبة لغالبية السيدات فانهن اما تناولن الفطور في غرفهن أو انه لم يحن الوقت لا ستيقاظه بعد.

ولم تتذكر مارسيا انها كانت تقوم بنزهة صباحية على صهوة خيل. قال والدها حين قبلته قبلة الصباح: «اعتقد انك جاهزة للسباق. لقد سمعت المزيد عن البرنامج المثير الذي نظمه الدوق. وعلينا، بطريقة أو باخرى، ان نتميز.»

قالت مؤكدة: «بالطبع سنفعل، يا والدي.»

أحضر لها الخدم اصناف عديدة لتختار طعام فطورها. الأمر الذي كان يختلف عما هو عليه في انكلترا، اذ ان الضيوف يختارون بانفسهم ما يريدون من عدة أصناف موضوعة على طاولة جانبية. وبما انها تشعر بالجوع، اختارت مارسيا سمك السلمون المرقط الذي تم اصطياده من النهر ووجدته شهياً. وبينما هي تأكل الخبز المحمص والعسل قبل انتهاء وجبتها، دخل الدوق، وقال: «صباح الخير، يا سيدي اللورد.» وحنى رأسه للآخرين الموجودين إلى الطاولة، وتجاهل مارسيا.

فأنهت ما كانت تأكله وسألت فيما هي



تنتصب واقفة: «أي ساعة ستنطلق إلى مزرعة الخيل، يا أبي؟»

«اعتقد انه علينا ان نتبع تعليمات الدوق ونذهب أولاً إلى الاسطبلات، وسنختار الذي سنمتطيه خلال الاستعراض.»

«فكرة جيدة!»

«سألتقيك في الردهة عند الساعة العاشرة والربع، ولا تدعيني أطيل الانتظار!»

«أنت تعرف اني لا أتأخر أبداً.»

ثم ابتسمت له وتركت الغرفة ولدى فعلها هذا، قال أحد الرجال: «ان ابنتك من أجمل الفتيات الشابات اللواتي رأيتهن في حياتي! لا بد وانك فخور جداً بها.»

كان قد سمع مثل هذا الكلام عدة مرات، فرد قائلاً: «بالطبع اذا كذلك. وكل ما اتمناه لها هو سعادتها.» ونظر إلى الدوق، الذي تظاهر بأنه لم يكن يستمع لما يقال.

في غرفتها، ارتدت مارسيا بذة خضراء مخصصة لركوب الخيل اجمل من التي كانت ترتديها في الصباح، وسرحت شعرها الذي عاد منسدلاً على ظهرها ثانية بعد ان كان مجعداً بسبب السرعة التي كانت تنطلق بها على الخيل في الصباح.

ولدى نزولها إلى الطابق السفلي، دهشت جميع السيدات بجمال طلتها ومظهرها.

وقلن ان الخياطين الإنكليز فقط يستطيعون خياطة ثياب

أنيقة إلى هذا الحد. ذهبت مارسيا بعد ذلك مع والدها إلى الاسطبلات، لتجد أنها ووالدها قد سمح لهما بركوب الخيل قبل بدأ البرنامج المقرر. أما بقية المدعوين، فقد تم نقلهم إلى مزرعة الخيل في عربة كبيرة مفتوحة. وقد أعلموا بعدم استطاعتهم ركوب الخيل إلى أن يظهروا تماماً كما ارادهم الدوق.

ان الاستعراض جميل ومؤثر جداً. فقد كان مثل السائس يعرض كل حصان على الضيوف؛ بعد ان تم تزيين اعناق وذيول الخيل للمناسبة. فكان اعجاب الناس بهذه الخيول المميزة شديد جداً.

كان الدوق يعرض كل خيل باسمه ويسرد للايرل ولأي شخص مهتم آخر نبذة صغيرة عنه.

ولكم كانت مارسيا مندهشة ومسرورة بالخيل الذي قدمه لها كبير السياس، رغم كون الخيل اكبر من أكيليين بقليل. وهي على ثقة ان الدوق لم يكن ليسمح لأي من السيدات المدعوات ركوبه. فهو جموح ولا يهدأ، لكنها سرعان ما تمكنت من السيطرة عليه.

ولدى فعلها ذلك، أدركت ان الدوق قد بدأ ينظر اليها بنظرة رضا.

وحاولت الا تتحدث اليه وهو بادلها الأمر نفسه. فلم يكن هناك من ضرورة لأن ينظرا أو يفكرا بشيء آخر سوى بالخيل. ثم بدأت السباقات، وقد انضم اليهم بعض من جيران الدوق الذين رغبوا بالسباق على خيولهم الخاصة.

فازت مارسيا بسهولة في سباق السيدات



الذي اقيم أولاً. وبما انها الفائزة، يمكنها الاشتراك في سباق الرجال. وقالت في نفسها انه لا بد وان يكون ذلك ما قد خطر للدوق في هذه اللحظة. لذلك لم تتمكن من منع نفسها من النظر اليه بعينين شاكرتين.

وقد كان جلياً من بريق عينيه إنه ما كان ليسمح لأي امرأة أخرى ان تفعل ذلك. ثم حوّلا نظرهما عن بعضهما بسرعة حتى لا يلفتا نظر المحيطين بهما.

وفي سباق الرجال في السهل، حلت مارسيا في المرتبة الرابعة.

وبعد تناول المقبلات، سمح لمارسيا الاشتراك في سباق الخيل عبر الحقول. فأدركت حينها سبب منح الدوق لها هذا الخيل الذي كانت تمتطيه.

وفيما كانوا لا يزالون داخل القصر يتناولون الطعام، كانت الحواجز تحضر لسباق القفز فوق الحواجز.

وبسبب علو الحواجز، انسحبت بعض السيدات بعد قفزتين أو ثلاثة. ليبقى عند نهاية السباق ثلاثة خيول: خيل الدوق، وخيل مارسيا وخيل الايرل. لتكون بذلك نهاية مميزة. إذ كان من صعب معرفة الفائز. الا ان الدوق، وبأداء رائع اجتاز خط النهاية قبل الايرل وابنته بفارق بسيط.

أما الايرل وابنته فقد تعادلا. فقالت مارسيا في نفسها انها لم تستمتع بشيء في حياتها قط كما استمتعت بهذا السباق، وانه من الصعب عدم التفاعل مع الدوق.

فصرح والدها له انه لم يخض سباقاً مثيراً كهذا من قبل.

ولدى عودة الجميع إلى القصر، كانوا كلهم متعبين. فذهبت النساء إلى غرفهن للاستراحة قبل موعد العشاء.

واصطحبت الكونتيسة مارسيا إلى غرفتها، وقالت لها: «كان أداؤك رائعاً، يا عزيزتي. وأنا واثقة من أن يكون ابن أخي قد تأثر كثيراً بهذا. ولم يكن هناك من فتاة أخرى تضاهيك.»

«هذا بفضل الخيل الذي كنت امتطيه. وكان السباق مثيراً وحماسياً جداً.»

قبلت الكونتيسة خد مارسيا وقالت: «أنا مسرورة جداً لأنك استمتعت بوقتك. أريدك ان تكوني سعيدة هنا، في القصر.»

وخافت مارسيا من أن تقول المزيد. لكن لحسن حظها دخلت الخادمة لتساعدها على تغيير ملابسها، فتركت الكونتيسة الغرفة. وكان هناك وليمة كبيرة في المساء، حيث يليها سهرة مميزة في قاعة كبيرة لم تشاهدها من قبل، وكما توقعت مارسيا، رائعة كبقية المكان. فالاعمدة البيضاء كانت مزركشة بماء الذهب. مما أضفى جواً رائعاً على المكان، وجعل من السيدات بأثوابهن الطويلة النيول والمطرزة تبدو كالطيور.

أما الكونتيسة ومن هن في مثل عمرها فقد ارتدين مجوهرات كانت تشع بريقاً مع ضوء الثريات.

تقدم لمسايرة مارسيا العديد من الشبان خصوصاً الذي





اتوا من البيوت المجاورة. لكنها في نفس الوقت لم تمنع نفسها من ان تتمنى لو يكلمها الدوق.

وتجاهلها متعمداً. لذلك كان عليها ان تواسي نفسها باستراق النظر إليه بين الحين والآخر عندما تتأكد من عدم انتباه احد إلى ذلك.

وكان الوقت متأخراً حين أوى الجميع إلى الفراش.

بعد ان كان بعض الضيوف المسنين، امثال والدها، قد فعلوا ذلك سلفاً.

وقد سر مارسيا ان تغرق في النوم فور وضع رأسها على الوسادة. فقد كان يوماً طويلاً لكن ممتع.



كانت مارسيا تحلم بنفسها تقفز من فوق الحواجز حين استيقظت ظناً منها ان الخادمة قد ايقظتها. لتترك بعد ذلك ان والدها قد دخل إلى غرفتها وفتح الستائر، قائلاً: «آسف لأني ايقظتك، يا عزيزتي. لكن الدوق سيصطحبني بعد قليل لزيارة أحد اصدقائه الذي يريد بيع بعضاً من خيوله الجيدة، ظناً منه ان ذلك سيكون مفيداً لي.»

«رائع، يا أبي هل يمكنني مرافقتكما؟»

«اتمنى لو ان هذا ممكناً لأن الدوق أوضح ان الدعوة موجهة لي وحدي، واننا سنبقى حتى الغداء.»

فظنت مارسيا ان الدوق يفعل ذلك بناءاً على اتفاقها. اذ انه لو فعل عكس ذلك، لكان اثار الموضوع الثرثرة. ومع ذلك فقد شعرت بخيبة أمل بسيطة وقالت: «كم الساعة؟»

«انها العاشرة.»

فعلقت بانزعاج: «لقد نمت كثيراً! كنت أود القيام بنزهة على الخيل في الصباح الباكر.»

«يمكنك القيام بذلك بعد الغداء. فأنا لا اتوقع ان نعود باكراً. فالمكان الذي سنذهب اليه يقع على مسافة بعيدة من هنا.»

أمسك كرسياً ووضعه قرب السرير، ثم جلس وقال: «لقد ايقظتك لأنني اريد التحدث اليك.»

«بخصوص ماذا؟»

وضعت وسادة أخرى تحت رأسها، ثم نظرت إلى والدها، وتساءلت عما يريده.

قال: «أخشى ان يفاجئك ما سأقول، تماماً كما حصل معي، لكنني اعتقد انه عليك معرفة الأمر.»

نظرت مارسيا اليه بدهشة، فأخبرها ما قالته له الكونتيسة بالحرف الواحد عن ساردوس.

ولدى انتهاء والدها من الكلام، سألته: «أتصدق فعلاً ما قد قالته الكونتيسة، يا أبي؟ يبدو لي هذا محالاً!»

«هذا ما بدا لي أنا أيضاً. وفي نفس الوقت، أنا لا أحب هذا الشخص، ولا استبعد قيامه بأي عمل.»

«أنا لا احبه أيضاً، لكن يصعب تصديق انه قد يقتل خاله.»

«لا يمكننا استبعاد الاحتمال.»

«هذا ليس من شأننا.»

فسكت الايرل ثم قال: «لطالما أحببت الدوق، منذ ان كان صغيراً، وكان والده صديقاً لي. هل يمكن لي ان اكون قاسي القلب إلى هذا الحد



كي أسمح لأمر كهذا بالحصول فيما أنا يمكنني ايقافه؟»

«تعني انه يمكنني منع ذلك من الحصول ان تزوجت منه! وكونه زوجي لن يمنع ساردوس من قتله.»

«ستكون جريمة غير مجدية ان كنتما قد انجبتما طفلاً.»

سكتت مارسيا للحظات ثم قالت: «أجل... بالطبع... أنا... لم أفكر بذلك لكن، وبكل تأكيد، ماذا ان حاول... قتل الدوق... قبل ان يتزوج؟»

«لقد توسلت الكونتيسة ابن اخيها الدوق ان يأخذ كل الاحتياطات اللازمة. لكنك تعلمين تماماً كما أعلم أنا، اذا كان رجل مصراً على قتل رجل آخر، قد تكون هناك مفاجآت تعرقل قيامه بذلك. أو حصول أمور غير متوقعة.»

«من الصعب حصول ذلك هنا عندما يكون الدوق محاطاً بالخدم. وسيكون من الحكمة، بالطبع، ان لا يتجول بمفرده، إن كان يفعل هذا.»

فقالت في نفسها انه من الحماقة ركوبه الخيل منفرداً في ذلك الصباح الباكر. وان لم يكن هناك من ضيف يرافقه، فيجدر به حينها ان يأخذ احد الخدم معه. غير انها ادركت ان ذلك قد يزعجه.

قال الايرل: «اعتقد ان ما يحتاجه الدوق، والذي قد ينقذ حياته، هو زوجة ترعى شؤونه.»

فقالت بحدة وهي تغطي وجهها بكفيها: «لا، يا أبي، لا! قد يكون هذا انقاذاً له، لكن ليس لي!»

فوقف الايرل وقال: «يا لك من عنيدة!» ثم تابع بنفاد صبر: «ما الذي قد تطمحين اليه اكثر مما ترين حولك؛ هذا القصر، وهذا الرجل الذي، حسب رأيي، يضاهي ويفوق كل معاصريه!»

عم الصمت للحظات، ثم قالت مارسيا بهدوء: «أنت تدرك تماماً ان الدوق لا يحبني!»

«من السهولة أن يغرم بك، هذا ان أوليته قليلاً من الاهتمام. فقد لاحظت حتى انك لم تهنئيه عندما فاز بالسباق، وعلى حد علمي، فانت لم تتحدثي إليه في أي وقت آخر!»

«بل يمكنك ان تقول انه هو لم يتحدث إلي! ينبغي ان تعرف انه متورط بعلاقة مع الماركيزة الجميلة، رغم انه لا يستطيع الزواج منها.»

احتج الايرل قائلاً: «الذي يحصل بين الماركيزة والدوق ليس له أي توابع بل هو مجرد تسلية. أما ما يهم بالنسبة له ولعائلته هو ان عليه الزواج وانجاب وريث.»

ثم توجه نحو النافذة وقال: «هل يمكنك تصور ما قد يحدث حين يرث ذاك الشاب الشقي ساردوس كل هذا بعد وفاة والدته؟»

وضع يده على حافة النافذة وتابع: «منذ زمن بعيد، وقبل وفاة والده، باع كل ما أمكنه الحصول عليه وانفقه على اصدقائه في باريس. وما سيفعله بالقصر هو تجريده من كل ما قد مر عصور وعصور على وجوده.»

«تبدو مستاء جداً، ومع ذلك، انا غير آبهة بما قد يحصل





للقصر، بل بالسعادة التي لقيتها في وود هول والممتلكات التي أخبرتني بانها ستكون لي يوماً ما.»

«إن كان هذا رأيك، فما من جدوى في متابعة الحديث.»

«أبداً. أنا آسفة لأجل الدوق، لكن ذلك يعنيه ولا يعنيني، وهناك العديد من الفتيات في فرنسا اللواتي قد يبذلن كل ما بوسعهن لانقاذه، فيما لو أشار هو باصبعه فقط.»

لم يعلق الايرل على ذلك، بل خرج من الغرفة وصفق الباب خلفه بقوة.

تنهدت مارسيا بأسى فهي تكره ان تخيب ظن والدها الذي تحبه. إلا انها وفي نفس الوقت مقتنعة انه كان يبالغ في التفكير بالموضوع ككل. وهي تعتبر انه يفعل ذلك ليحثها على الزواج من الدوق. وتساءلت ان كان قد ذكر شيء من هذا القبيل لأرموند.

وكم هي متشوقة لمعرفة حقيقة ما يجري، الا انه من الصعب ايجاد فرصة أخرى للانفراد به والتحدث اليه.

فقررت ان تستيقظ باكراً كما فعلت في الامس وتذهب في نزهة على الحصان عند تمام الساعة السادسة.

وان تحاول الايحاء له بطريقة ما صدق رغبتها في لقائه. لكن السؤال هو كيف سيحصل ذلك. ولعدم رغبتها برؤية والدها قبل ذهابه مع أرموند، لم تنزل إلى الطابق السفلي الا عند الظهر.

فحيتها الكونتيسة بحرارة قائلة: «ها أنت ذا، يا عزيزتي. هل ارتحت؟»

فردت بنبرة معتذرة: «اخشى انني تأخرت قليلاً، يا سيدتي.»

«هذا حالنا كلنا، والجميع معذورون، ولحسن الحظ ان ابن اخي لم يحضر برنامجاً لليوم. وكما أظن انك تعلمين، فقد اصطحب والدك لمعاينة بعض الخيول.»

«أعلم ان ذلك سيسر والدي كثيراً.»

لسبب ما، اختفى معظم المدعوين الذكور. ولم تجد مارسيا المقبلات شهية كالمأكولات التي تناولتها من قبل. بعد انتهائهم من تناول الطعام، تم استدعاء الكونتيسة لحل مشكلة تتعلق بالشؤون المنزلية. ولم ترغب مارسيا بالتحدث مع المدعوين الموجودين في الصالون، خوفاً من ان يحاولوا اقناعها بالزواج كما يفعلون مع الدوق. فهي على ثقة من انهم يودون لو يعرفوا ان كانت مغرمة به ام لا. فقالت مارسيا في نفسها مبتسمة انها لو اخبرتهم الحقيقة، فانهم لن يصدقوها.

لذلك، صعدت إلى غرفتها وارتدت ثياب ركوب الخيل، ثم تسللت من سلم جانبي يؤدي إلى الاسطبل. وسألت السائس ان كان ممكناً ركوب اكيلين، فقال كبير السياس: «أنا واثق، آنستي، من انك تودين مرافقة أحد السياس لك.»

«لا شكراً. افضل ان اكون بمفردي.»

فرأت تعابير عدم موافقة السائس على فعلها هذا. وفهمت انه يفضل الركوب منفردة في الصباح دون سائس لعدم وجود احد في الجوار، وفعل العكس في أي وقت آخر من اليوم.





الا انها أرادت أن تفكر فيما قاله لها والدها، لذلك لم تكن ترغب بوجود شخص يتحدث اليها أو يتبعها أينما ذهبت.

وايأ ما كانت رغبة كبير السياس، ستذهب بمفردها. فجهز لها اكيلين، وفيما هي تنطلق بعيداً، اخذ يرمقها بنظرات رافضة.

كائناً ما كان، انطلقت مارسيا بين التلال التي لطالما ارادت رؤيتها عن كثب. ولم تكن قد ابتعدت كثيراً حين دخلت حشرة في عينها، فشدت لجام الخيل لتوقفه تحت أغصان شجرة ما. وبعد ان أخرجت الحشرة من عينها مسحتها بمنديل وبينما هي تفعل ذلك رأت رجلين يسلكان طريق جانبية، ولم تتمكن من معرفة هويتهما بوضوح، الا انها متأكدة من ان احدهما هو ساردوس، الذي لم يكن موجوداً اثناء تناول الغداء، والذي قالت الكونتيسة عنه: «يقلقني غياب الرجال عن المكان، مهما كانت الاسباب.»

فصدرت بعض الكلمات من السيدات حولها، ثم تابعت: «حتى ان ساردوس ادعى ضرورة قيامه بعمل ما لكن لا يمكنني ان اتصور ما هو هذا العمل، وهنا في المحيط.»

لقد كانت نبرة صوتها قلقة مما جعل مارسيا تظن ان الكونتيسة كانت تتحدث إلى نفسها اكثر من ان تتحدث إلى المحيطين بها.

بما انها رأت ساردوس برفقة رجل آخر، تساءلت ما ان كان ينوي القيام بأي عمل مؤذ.

ولم يبدُ محتملاً ان يكون ينوي على عمل ما قد يؤذي

الدوق هنا، في هذا المكان. فهو لن يتمكن من ايجاد المال بين الصخور. كما هو الحال عند كروم العنب التي لم تنضج بعد.

فانتظرت حتى اصبح الرجلان بعيدين عنها. لتنطلق مجدداً. فترى امامها حاجزاً عالياً، الا انه بدا لها تحدياً ان تقفز من فوقه. فانحنت لتربت على عنق آكيلين وقالت بالفرنسية: «هيا، ارني ما يمكنك فعله.»

وبينما كانت في الهواء فوق الحاجز، رأت مارسيا ان هناك طفلة عند الجانب الآخر من الحاجز، ولم يتسنَّ لها سوى ان تحيد آكيلين إلى جهة اليمين، غير ان ذلك لم يكن كافياً، وفيما هو يحط على الأرض، ضربت حدوته الخلفية الطفلة فوقعت على الأرض.

ترجلت مارسيا عن الحصان، وهرعت باتجاه الطفلة التي كان عمرها لا يتجاوز الخمس سنوات، والتي كانت تحمل باقة من الازهار البرية في يدها والتي كان تقطفها من حول الحاجز الصخري.

حملت مارسيا الطفلة بين ذراعيها ونظرت حولها بقلق لترى بيتاً صغيراً يبعد عنها حوالي الخمسين ياردا إلى اليسار فتوجهت نحوه سيراً.

بعدما فعلت ذلك، رأت صبياً في الرابعة عشر من عمره يهرع نحوها سائلاً: «ماذا جرى؟»

«من هي هذه الطفلة الصغيرة؟»

«انها اختي، ليزيت. طلبت مني والدتي ان اعتني بها، هل ماتت؟»

«لا، بالطبع لا. لقد ضربها خف الحصان، ففقدت الوعي.»



وتمنت في نفسها وهي تقول ذلك، ان لا يكون الأمر اخطر من ذلك، وفيما هي تقترب اكثر، قالت للصبي: «هل هذا بيتكم؟ هل والدتك هنا؟»

«لقد ذهبت والدتي لرؤية جدي المريض.»

فشعرت مارسيا بالخوف لرؤيتها البيت فارغاً وما من احد في الجوار.

اخذت مارسيا تنظر إلى الطفلة بين ذراعيها وتقول انها طفلة جميلة.

لقد ضربها خف آكيلين في وسط جبهتها. فكان هناك خدوش بسيطة ولم تكن تنزف بقوة، الا ان بقعة زرقاء قد بدأت بالظهور فبعثت القلق في قلب مارسيا.

فسأل الصبي بقلق: «كيف ستتصرفين؟ هل ستشعر ليزيت بآلام مبرحة؟»

«لا اتمنى ذلك. لكن يجب ان يعاينها الطبيب في اسرع وقت ممكن.»

فهز الصبي رأسه نفياً وقال: «ما من طبيب في الجوار.»

فأدركت مارسيا ان عليها طلب مساعدة احدهم، فقالت في نفسها: «سارسل في طلب مساعدة احدهم من القصر.»

وصل الصبي ومارسيا إلى بيتهم الذي كانت تحيط به حديقة صغيرة. ففتح الصبي البوابة، ليعبروا ممراً صغيراً يؤدي إلى باب المنزل الامامي الذي هرع الصبي ليفتحه.

وقبل ان تدخل مارسيا إلى المنزل، نظرت خلفها، فشعرت بارتياح لان آكيلين كان يأكل العشب قرب الصخور

وشكت في أن يبتعد عن المكان وان فعل ذلك فانه سيعود إلى الاسطبل على الأرجح.

في الوقت الحالي، عليها ان تهتم برعاية ليزيت.

كان البيت صغيراً، يقع المطبخ فيه من جهة والصالون من جهة أخرى وفي الجزء الخلفي من المنزل كان هناك غرفتي نوم.

في غرفة النوم الكبيرة، كان هناك سرير كبير وآخر اصغر منه، قال الصبي انه سرير ليزت.

الا ان مارسيا وضعت الطفلة على السرير الكبير.

وقد شعرت مارسيا بالخوف لان عينا الطفلة كانتا لاتزالان مغمضتين ووجهها شاحب. ولشدة شعورها بالخوف والقلق اخذ قلبها يضرب بقوة.

قالت بصوت عالٍ: «ان اختك مصابة بارتجاج في المخ، وعلينا ان نطلب المساعدة. سأرسل معك رسالة تسلمها لاحدهم في القصر.»

هز الصبي رأسه موافقاً وكانه فهم ما قالته.

فسألته: «ما اسمك؟»

«اسمي بيار.»

«حسناً، يا بيار. احضر لي ورقة وقلم وبعض الحبر حتى اكتب الرسالة. سأبدل لاختك ثيابها، فاخبرني اين اجد ثوب نومها.»

رفع بيار الوسادة من سرير ليزيت ليسحب من تحتها ثوب نومها. لاحظت مارسيا ان الثوب، كما مفارش الاسرة، كما المنزل، كان نظيفاً.

فقالت في نفسها انه لا بد لوالدتهما ان تكون سيدة





نشيطة. ثم تذكرت ان الفرنسيين يتميزون دائماً بنظافة منازلهم.

فهم يعرضون فراش الاسرة للتهوئة يومياً.

ثم كررت طلبها من بيار: «احضر لي ورقة وقلماً.»

فذهب بيار لاحضار ما طلب منه، وتوجهت مارسيا إلى المغسلة عند زاوية الغرفة حيث يوجد ابريق ماء ومعلقاً فوقه كان قطعة قماش قطنية.

فمسحت برفق جبهة ليزيت حيث كان بعض نقط من الدم، الا ان مارسيا قد لاحظت الكدمة الزرقاء على جبهتها تزداد احتقاناً. فخلعت حذاء وكلسات ليزيت وكانت على وشك ان تفك ازرار فستانها القطني حين عاد بيار.

«لقد احضرت لك بعض الحبر وريشة، يا آنستي، واحضرت أيضاً قطعة من الورق لكنني اظنها كبيرة بعض الشيء.»

لا بد وان تكون والدته تضع هذه الورقة على طاولة المطبخ. فقصت منها ما تريد ثم جلست على كرسي، واخذت تغط الريشة في دواة الحبر وتكتب: «لقد صدمت طفلة بالحصان. ارجو ارسال طبيب أو أي شخص قد يكون مساعداً لي، لكن لا تخبر أي شخص في القصر عن هذا الموضوع، وخصوصاً أبي لان ذلك سيقلقه ويزعجه. مارسيا.»

ثم طوت الورقة متمنية الا يفتحها احد. ثم كتبت اسم الدوق على احدى الجهات وكتبت فوق اسمه: خاص وشخصي.

وفور انتهائها قالت لبيار: «خذ هذه باقصى سرعة

لديك إلى القصر وقل انها للدوق وليس لأي شخص آخر. وحاول، ان كان ذلك ممكناً، ان تسلمه اياها باليد. اكرر باقصى سرعة، لكن اخبرني قبل ذهابك متى سترجع والدتك.»

«قد تعود في وقت متأخر من هذه الليلة، وعلى الأرجح غداً صباحاً.»

فشعرت مارسيا بالخوف لسماعها ذلك، وقالت: «افعل كل ما بوسعك لتتكلم مع السيد الدوق شخصياً. فهو سيساعدنا بينما آخرون سيسببون جلبة وحسب.»

«سأقول انني آت من طرفك، آنستي، ان اخبرتني عن اسمك.»

فقالت مارسيا في نفسها ان هذا الصبي يتمتع بالذكاء، وقالت: «انا الليدي مارسياوود. كرر هذا من بعدي.»

«الـ... ليدي مارسياوود.»

«هذا صحيح. كرره، مرة واحدة بعد ومن ثم كرره مراراً لنفسك وانت في طريقك إلى القصر.»

ففعل كما طلبت منه وقال: «انا عداء سريع، يا آنستي، سأعود بسرعة.»

فاصطحبته ماريا نحو الباب وتأكدت من ان اكيلين لايزال في مكانه. الحصان الذي لم يبد مهتماً لما يجري.

شعرت بشيء من الارتياح وعادت إلى ليزت التي كانت على حالها دون حراك. فبدأت تخلع عنها فستانها برفق ظناً منها انه عندما تعود الطفلة إلى وعيها، سترتاح اكثر دون ثيابها.





وفي نفس الوقت كان لايزال احساسها بالخوف يتحرك في داخلها، لعل دماغ الطفلة قد تأذى. فقالت في نفسها: انا واثقة من ان الدوق سيجد طبيباً. وتمنت ان يظهر في وقت قصير، خصوصاً وانه لا بد وان يكونا قد عادا من مشوارهما الذي امتد من الصباح حتى بعد الظهر وبعد الغداء بالتحديد.

عادت وقالت في نفسها: «ما من احد يمكنه مساعدتي في لحظة كهذه سوى الدوق.»

ثم تساءلت عن السبب الذي دفعها لطلب المساعدة من آرموند دون سواه.

# الفصل السادس

هرع بيار مسرعاً نحو القصر. ولدى وصوله إلى الباب الأمامي شعر بالخجل لما عليه فعله. وعندما نظر إلى المدخل خلفه ورأى عربة تقترب، لم يقرع الباب ظناً منه أن من في العربة قد يكون الدوق. وإن كان كذلك، فإنه لن يكون مضطراً للكلام مع كبير الخدم الذي أخافه.

فاقتربت العربة أكثر وإذا بالدوق يقودها. ولدى رؤيته الصبي، شد لجام الخيل لتقف العربة. فرأى بيار مرافق آرموند ينزل من العربة، وبينما كان الدوق يسلم العنان إلى السائس الذي كان يقف عند مؤخرة العربة، اقترب بيار وقال وهو ينحني: «عليّ أن أسلمك هذه، يا سيدي.»

فنظر الدوق إلى بيار بدهشة، وسأله: «رسالة لي؟ من من؟»

«من الآنسة الليدي مارسيا وود.» فأخذ الرسالة من بيار وفتحها وبعد أن قرأها، سأله: «أين هي الليدي التي كتبت هذه الرسالة؟»

«في بيت والدتي، يا سيدي.»

«انتظرني هنا.»

فصعد الدوق السلم ودخل الردهة وقال لأحد الخدم: «أحضر لي جاك إلى هنا فوراً.»





«أمرك سيدي.»

وفي هذه الأثناء كان الإيرل قد انتقل من الردهة إلى الصالون. وكان بامكان الدوق سماع صوته يتحدث، فرجح أن يكون حديثه موجهاً إلى الكونتيسة، فيما هو ينتظر بفارغ الصبر.

قال في نفسه انه ليس من الصواب التصريح عن مضمون هذه الرسالة حتى يتأكد مما فيها.

لم تمضِ دقائق قليلة حتى وصل جاك، مساعد الدوق الخاص، الذي مضى على عمله معه حوالي العشر سنوات، والذي هو متوسط العمر، إضافة إلى أنه بارع في الإسعافات الأولية.

فأخذه آرموند بعيداً عن مسامع باقي الخدم، وقال بصوت منخفض: «هناك حادث وأريدك أن تأتي معي على الفور. أحضر كل ما تعتقده ضروري.»

ودون أن يسأل جاك عن أي تفاصيل، عاد إلى الطابق العلوي بينما توجه الدوق إلى الباب الأمامي.

ثم قال لكبير الخدم: «أخبر الإيرل والكونتيسة، في حال سألا عني، أنني ذهبت لمساعدة أحد ما في الجوار.»

وبعد انتهائه من الكلام، خرج من القصر وعاد إلى العربة، حيث كان السائس يقف قرب الأحصنة.

وعندما صعد المساعد إلى العربة، قال الدوق للسائس: «أنا ذاهب في مشوار بسيط، لذا فأنا لست بحاجة إليك معي.»

فابتعد السائس، وقال الدوق لبيار الذي كان بانتظاره: «اجلس في المقعد الخلفي.» فنفذ بيار ما طلب منه بسرعة.

انطلق الدوق، وعندما أصبح بعيداً عن الأنظار سأل بيار دون أن ينظر إليه: «عليك أن ترشدني إلى المكان. فأنا لا أعرف أين يقع كوخ والدتك.»

فأخبره بيار أنه يجب عليهم المرور عبر القرية أولاً، ليسلكوا بعد ذلك طريقاً وعرة عبر المنحدر. ولحسن الحظ أنه لم يكن المطر يتساقط. وليتمكنوا من الوصول إلى الكوخ كان عليهم أخيراً عبور الحقول التي كانت مارسيا تتجول فيها.

ولدى اقترابهم من الكوخ، رأى الدوق أكيلين الذي كان لا يزال يأكل العشب، وتساءل إن كان من الأفضل ربط الخيل بالشجرة أم تركه على حاله.

رفع أكيلين رأسه حين رأى العربة تقترب، دون أن يتحرك من مكانه. فتركه الدوق ولم يربطه بالشجرة.

نزل آرموند من العربة وقال لبيار: «سأترك خيولي في مسؤوليتك، وأنا أعلم من أنك ستعتني بهم.»

فلم يكن هناك ما قد يفرح الصبي أكثر من هذا الكلام. توجه بيار بعد ذلك نحو الخيول وراح يربت عليهم.

فتح الدوق البوابة، وسلك الممر الضيق المؤدي إلى الباب الأمامي للكوخ، وحزر فوراً المكان حيث توجد مارسيا.

فخطا بضع خطوات قبل أن يصل إلى غرفة النوم التي وجد بابها شبه مفتوح. ففتحه ليجد مارسيا تهدهد ليزيت بين ذراعيها.



إلا أن مارسيا لم تشعر بدخول الدوق لأنها كانت تتحدث إلى الطفلة، وكان بإمكانه سماعها تقول بصوت رقيق. «لقد تأذيت، لكنك ستكونين على ما يرام قريباً. فيكون بإمكانك قطف الأزهار ثانية كما كنت تفعلين اليوم. أعتقد أنك كنت تنوين اعطاءها لوالدتك، التي سيسرها أنك فكرت بها فيما هي غائبة.»

فإذا بها تلتفت بعد انتهائها من الكلام نحو الباب، فترى الدوق واقفاً هناك.

فقالت بنبرة مختلفة: «لقد... جئت! أنا سعيدة جداً! إنني قلقة جداً. هل أحضرت طبيباً معك؟»

«لقد أحضرت مساعدي، جاك، الذي تضاهي مهارته مهارة الطبيب. ماذا حصل؟»

ثم اقترب من السرير ونظر إلى الطفلة بين ذراعي مارسيا التي قالت: «إنها... غلطتي. لقد قفزت من فوق حاجز دون أن أتأكد من وجود أحد من الجهة الأخرى. فضربت حدوة أكيلين الخلفية رأس الطفلة. أعتقد أن الطفلة مصابة بارتجاج في الدماغ وأتمنى ألا يكون هناك ما هو أسوأ من هذا.»

«سنترك أمر علاجها لجاك.» ثم تنحى جانباً ليتسنى لجاك فحصها. وعندما نظر إليها قالت مارسيا: «أعتقد أن عدم نزفها دماً كثيراً هو مؤشر عافية. لكن الكدمة في رأسها سيئة.»

تفحص جاك نبضها وقلبها ثم فحص جبهتها برفق. فسألته مارسيا: «كيف حالها؟ لقد

خشيت أن تكون قد ماتت في بادىء الأمر.»

«لا تقلقي، يا آنستي. إن الطفلة حية، لكنها، كما قلت، مصابة بارتجاج في دماغها. إلا انني لا أعتقد أن رأسها متأذٍ لدرجة كبيرة.»

«هل ستلف لها رأسها بضماد جروح؟»

هز جاك رأسه نفياً وقال: «أنا لا أفعل ذلك أبداً إلا عند الضرورة. أفضل إبقاء جبهتها عرضة للهواء النقي وأشعة الشمس التي تداوي أكثر من أي علاج آخر.»

فابتسمت مارسيا وقالت: «هذا ما كانت والدتي تردده دائماً إضافة إلى اعتقادها بعلاج العسل.»

فقال موافقاً: «وأنا، يا آنستي، لدي مرهم حضرته بنفسي من العسل الذي سيلئم الجرح بسرعة أكثر من أي وصفة طبية أخرى.»

ثم فتح الحقيبة التي أحضرها معه وأخرج انبوب المرهم، وراح يدهن بلطف حيث الكدمة التي كانت تزداد احتقاناً.

«أما الآن، فعليك أن تمنعيها من الحراك وأن تهدئي من روعها حين تستعيد وعيها.»

أما الدوق وبعد أن التزم الصمت لبرهة، توجه نحو السرير وسأل مارسيا: «أين والدة الطفلة؟ من المؤكد أنها ستعود إلى المنزل قريباً، إذا كانت تعمل في الحقل.»

«اضطرت للذهاب إلى مكان بعيد، وقد تعود غداً صباحاً. وأنا سأهتم بليزيت لحين عودة والدتها.»

فنظر آرموند إليها بدهشة. وقال: «أتقصدين أنك





ستبقين هنا؟ ألا تفضلين نقل الطفلة معنا إلى القصر؟»

«لا، لا. لا أعتقد أنها ستشعر بخير ان استعادت وعيها ولم تكن في منزلها.»

«وستبقين هنا معها؟» وكأنه لا يصدق ما سمع لتوه. فهو لم يتصور قط أن تبقى أي امرأة كانت من مستواها في كوخ فلاح للاعتناء بطفلة مريضة لم ترها من قبل.

«طبعاً علي البقاء معها. أنا من سبب حالتها هذه و... إنها فتاة صغيرة وجميلة.»

«افعلي ما ترينه صواباً، لكنني لا أظن أنك ستكونين مرتاحة البتة.»

لم تعلق مارسيا على ما سمعته. وقد كانت تحضن الطفلة بين ذراعيها، ورغم توقفها عن الكلام مع ليزيت، كان يخالج الدوق احساساً بشدة رغبة مارسيا أن تستعيد الطفلة وعيها. وسأل: «أين والد الطفلة؟»

عم الصمت للحظات وكان السؤال قد استغرق بعض الوقت قبل أن يصل لمارسيا، التي قالت بعدئذ: «أنا... لم يخطر لي أن أسأل بيار قط.»

ثم خرج الدوق من غرفة النوم. ووضع جاك أنبوب مرهم العسل على الطاولة وزاد إليه مواد أخرى.

كان بيار في هذه الأثناء مع الخيول، يربت عليهم ويعتني بهم، فاقترب آرموند منه وسأله: «أين والدك؟»

«لقد توفي والدي، يا سيدي حين انهارت عليه الصخور في الشتاء الماضي.»

«وكيف تدبر والدتك شؤونكم من دونه؟»

«إنها تغسل ثياب بعض العائلات في القرية، وتصنع الرباطات وتبيعها في السوق.»

إن الدوق يعلم أن الرباطات المحلية مرغوبة كثيراً من قبل السياح، إضافة إلى استفادة بعض النساء منه.

وتابع آرموند أسئلته لبيار: «ألا تعتقد أن والدتك ستعود الليلة؟»

هز بيار كتفيه وقال: «إن تحسنت صحة جدي، ستعود والدتي الليلة، يا سيدي. وإن لم يفعل، ستعود غداً في الصباح الباكر.»

وبعد أن عرف ما يريد معرفته، عاد مجدداً إلى الداخل حيث مارسيا.

في الوقت الذي كان فيه جاك يخرج من غرفة النوم، اصطحبه الدوق إلى المطبخ وأعطاه مجموعة تعليمات. قال جاك: «سأسوي الأمر، يا سيدي.»

«شكراً لك، يا جاك. الآن، وفي طريق عودتك بالعربة إلى القصر، أنا سأمتطي آكيلين.»

«لقد رأيته في الحقل، يا سيدي، لحسن الحظ أنه لم يتأذى.»

«هذا ما قلته أنا أيضاً.»

ثم ركب جاك العربة وانطلق عائداً إلى القصر. وتوجه الدوق نحو آكيلين، وربط اللجام حول عنقه الأمر الذي لم تفعله مارسيا، وتوجه نحو الكوخ.

قال: «لا تكن شقياً، وابقَ هادئاً.»

ثم مشى إلى حيث كان بيار عند البوابة يراقبه وقال:





«انتبه للحصان. سأنزعج كثيراً إن فقدته.»

«سأهتم به، يا سيدي.»

«إن فعلت هذا، سأمنحك شيئاً ثميناً تنفقه في القرية.»

فرأى عينا الصبي تشرقان فرحاً.

فقد ظن الدوق أنه، ومنذ وفاة الوالد، كان صعباً على الأم أن تطعم نفسها وأولادها مما تجنيه.

نظرت مارسيا بدهشة لدى رؤيتها الدوق يدخل إلى غرفة النوم ثانية وقالت بتعجب: «أنت لا تزال هنا! لقد سمعت صوت العربة يبتعد وظننتك عدت إلى القصر.»

«أخشى أنه حين عودتي، أن أبلى بوابل من الأسئلة حول ما جرى.»

فضحكت وقالت: «كان ذلك ليحصل حتماً! أنا أشعر بخجل شديد مما فعلت.»

«ما من ضرورة لتشعري بذلك.»

«ما كنت لأسامح نفسي لو كنت قد آذيت... هذه الطفلة. إلا أن مساعدك، جاك، يعتقد أن الإصابة غير خطيرة، وإن دماغها لم... يتأذ.»

«أنا أثق بجاك، فهو يعالجني منذ أعوام، ولم يؤذني يوماً.» وقد لاحظ أثناء حديثه مع مارسيا الحنان الذي كانت تنظر وتحتضن به ليزيت.

وبما أن مارسيا كانت قد خلعت حذاءها، فقد استطاعت الجلوس على السرير. وكان شكلها وهي تسند رأسها إلى رأس الطفلة الفاقدة الوعي رائعاً.

فجلس الدوق على كرسي وأخذ يراقبها. ولأنه كان

يلتزم الصمت، كانت مارسيا تنظر إليه متسائلة. فقال: «أعتقد أنك مولعة بالأطفال كثيراً.»

«أنا أحبهم. ولكم كنت أتمنى لو كان لدي إخوة وأخوات ألعب معهم، فأنا وحيدة.»

ثم نظرت إلى ليزيت وتابعت: «يسرني طبعاً وجود أبي في حياتي، لكنه لطالما عاملني على أني ابنه وليس ابنته. لكنني أريد ابنتي، في حال انجبت واحدة، أن تلعب بالدمى وتفكر بهم كما كنت أتمنى أن أفعل، وكأنهم أولادها.»

«إن كان لديك هذا الاحساس، فلماذا لا تتزوجين وتنجبين الأطفال؟»

«هذا ما أود فعله حين أجد زوجاً يهتم بهم تماماً كما أفعل أنا.»

ففكر الدوق قليلاً في كلامها ثم قال:

«هل معنى قولك ان كل الشبان الذين تقدموا لطلب يدك للزواج، والذين هم حسب المعلومات يشكلون عدداً كبيراً، لم يكونوا آباء صالحين، حسب رأيك؟»

«قد يكونوا كذلك. لكن ليس هناك من دلائل على ذلك. فكيف يمكن لي أن أنجب أطفالاً يشعرون بأنهم متجاهلون أو غير مرغوب فيهم؟»

وفيما كانت لا تزال تتكلم بصوت هامس، أدرك الدوق أن فعلها ذلك ليس فقط حتى لا توقظ الطفلة، بل أيضاً لأنها نسيت للحظات مع من تتحدث. أو أنه كما يتدخل في أمورها الشخصية. وفي نفس الوقت فقد مكنه ما سمع منها أن يعرف الكثير عنها، ولأنه كان يتمتع بذكاء حاد،



فقد استطاع أن يعرف ما لم يعرفه أي شخص وهو سر كره مارسيا لفكرة الزواج المدبر، أو أي زواج رباطه الأساسي ليس الحب.

وكأنها أدركت فجأة ما كان يفكر به، نظرت إليه وقالت: «لن تخبر أحداً بما قد أخبرتك؟»

«يمكنك الوثوق بي. وإن كان يهمك الأمر، فأنا أقول لك انني أيضاً كنت وحيداً عندما كنت طفلاً صغيراً.»

«الأمر مختلف بالنسبة للصبيان.» وكأنها لا تريد أن تظهر تعاطفها.

فهز رأسه قائلاً: «أعتقد أن حاجات الأطفال جميعاً واحدة ـ الرفاق و، طبعاً الحب.»

«لا أصدق أن والدتك لم تكن تحبك.»

«لقد أحبتني، وكذلك والدي. لكنني لم أتوقف عن أخبار نفسي روايات تحكي أن لدي أخ آخر في مثل سني نتسلق الأشجار معاً، ونختبىء من المربيات والأساتذة الخصوصيين، والذي يسابقني على الفرس أينما ذهبت.»

ضحكت وقالت: «أنا اردت أن أفعل ذلك أيضاً، وشعرت أنه ليس من العدل أن يربح والدي السباق دائماً لأنه يمتطي حصاناً أكبر من مهري.»

«لطالما ظننت أن أبناء القرويين، والذين يتحدرون من عائلات كبيرة، كانوا أكثر سعادة مني أنا الذي كنت ألعب في حدائق كبيرة وشاسعة وأمتلك أغلى الألعاب ثمناً.»

«أنت تجعلني الآن أشعر بالأسى نحوك. وأنا أريد أن

أشعر بالأسى تجاه ليزيت لأنني آنيتها، ولأنها لا بد أن تكون طفلة وحيدة كما هو بيار الذي يكبرها سناً.»

«لدي أخت من أبي، لكنها أكبر مني باثنتي عشر عاماً.»

«إذاً، يبدو لي أن أفضل ما قد تفعله هو أن تكوّن أسرة كبيرة خاصة بك. وتأكد من أن يكونوا متقاربين في أعمارهم ـ كالتوائم إن أمكن ـ حتى لا يشعروا بالوحدة أبداً.»

وبينما كانت تتحدث إليه، تذكرت الأمر الذي قد نسيته حتى هذه اللحظة، ما قد أخبرها والدها إياه.

إن كان محقاً فيما يقول، فإنه من غير الممكن أن يتزوج الدوق أبداً، وستبقى حدائق القصر فارغة دون أطفال.

ودون أن تفكر أنه قد لا يكون على علم بنوايا ساردوس، قالت بسرعة: «عليك أن تكون حذراً... حذراً جداً! وإلا لن يكون هناك دوق روس، وطبعاً لن يكون هناك أطفال يتزحلقون على داربزين السلم ويلعبون «الغميضة» في تلك الممرات الطويلة.»

«عم تتحدثين؟»

«أنا... أنا آسفة... ما كان يجدر بي ذكر ذلك لقد كان ذلك... حماقة مني... لكنني ظننت أن سيدتي الكونتيسة قد حذرتك.»

«حذرتني؟ بشأن ماذا؟»

«بشأن... ابن أختك.»

«هل من جديد يتعلق به ولم أسمع عنه؟»

«أنا... أنا لا أعلم... لكن أبي أخبرني بأمر ما هذا الصباح.»



«أخبريني ما قاله لك والدك.»

فنظرت مارسيا إلى الدوق بنظرات قلقة وقالت: «لقد كان... حماقة مني أن أنكر ذلك... أرجوك... انسى ما قد قلته لك للتو.»

«لا تتوقعي مني ألا أكون فضولياً!»

تنهدت وقالت: «سيكون من الأفضل لو تخبرك الكونتيسة عن هذا الموضوع، لكن... إنها تعتقد أن ابن أختك ينوي... قتلك!»

فحدق الدوق بها وقال بتعجب: «يقتلني؟ لكن هذا سخيف!»

«يبدو أن الكونت قد أخبر دانتيه أنه عندما... تموت، الأمر الذي قد يحدث قريباً، سترث والدته... كل ما... تملكه أنت.»

فعم الصمت، ولأنها تشعر بالخجل، لم ترفع عينيها إليه، بل انحنت فوق ليزيت. ثم استأنف الدوق الحديث قائلاً:

«إن ما قلته بشأن والدته صحيح، إلا أنني لم أفكر أن ساردوس قد يخطط لأمر ما كي يستفيد من ذلك.»

«سيستفيد من ذلك كثيراً إن استطاع أن يتخلص منك بطريقة ما. آه، أرجوك... أرجوك... كن حذراً! لا يمكنك أن تدع شخصاً... يحل محلك مثله.. أنا متأكدة من أن كل الناس في المحيط.. بمن فيهم بيار ووالدة ليزيت... سيعانون إن هو... فعل ذلك.»

«سيحصل لهم ذلك بالطبع، لكنني لم أكن أعلم أنه يائس لدرجة أن يقدم على قتلي!»

«إنها مجرد... فكرة، ما من أحد أكيد منها. باستثناء أن الكونتيسة، وعبر بعض أصدقاء لها في باريس، أعلمت بأنه يعلن عمداً استفادته من الأمر بوفاتك.»

«الأمر الذي يجب تفاديه بكل الوسائل ومهما كان الثمن.»

فانتصب واقفاً وتوجه نحو الباب ثم ترك الغرفة. فنظرت ماريسيا إليه بقلق وقالت في نفسها: لربما لم يكن يجدر بي أن أخبره ذلك، لكن سيكون عليه أن يعرف عاجلاً أم آجلاً انه يجب أن يتوخى... الحذر أكثر.

فتذكرت عندئذ أنها رأت ساردوس ورفيقه في مكان لا يبعد عن هنا بكثير. لعلهما لا ينويان فعل ما هو سوء وإنهما يتجولان فقط.

لكنها عادت وقالت انها لو كانت مكان الدوق، لكانت شكت في كل شيء يقوم به ساردوس، وفي كل مكان يرتاده.

وفجأة وجدت نفسها تتمنى أن يظل الدوق بخير والا يتأذى.

لشعورها أنه في حال قتل، فإن وفاته ستكون بمثابة شجرة سنديان ضخمة تقع على الأرض، أو كروئية القصر يتحول إلى ركام.

•••

وبينما كان الدوق يقف عند الباب الأمامي يتأمل المشاهد الطبيعية أمامه، أخذ يتساءل في ما إذا كان ما قد سمعه معقولاً، أن يقتله ابن أخته لأنه بحاجة إلى مال كثير لينفقه على اللهو؟ فأجاب نفسه أن الفكرة كلها سخيفة ورفض أن





يخاف، ولو في عقله فقط، من شخص حقير إلى هذه الدرجة.

لكنه لم يستطع أن يتخيل أن كل ما أنجزه وأضافه من تجديد وتحديث على أملاكه، يهدر على اللهو والتسلية.

فقال في نفسه بحسم: أعتقد أنني يجب أن أمنح ساردوس المزيد من المال، بالرغم من أنني ساكون قد أهدرته سدى!

كان لا يزال واقفاً عند الباب عندما عاد جاك الذي كان يقود عربة بخيل واحد بسرعة كبيرة. وحين رآه الدوق آت، ابتسم، لثقته بأن جاك كان لينفذ تعليماته بالحرف الواحد.

أوقف جاك العربة قرب البوابة وقال للصبي الذي كان لا يزال واقفاً أمام أكيلين: «تعالى وساعدني، فلدي الكثير لأضعه في منزل والدتك.»

ولفضوله لمعرفة ما يحمل جاك، سارع لمساعدته بسرور.

فعاد الدوق ودخل إلى غرفة النوم.

وقال: «لقد عاد جاك. وبما انك مصممة على البقاء هنا، فقد أحضر لك بعض الملابس لكي تكوني مرتاحة أكثر.»

«لطف منك أن تفعل ذلك، كنت اتمنى أن ابدل ثيابي بشيء أخف بسبب حرارة الطقس.»

«هذا ما أقترح عليك أن تفعليه الآن، وأنا أتحقق مما قد أحضره جاك.»

ثم توجه نحو العربة وأحضر حقيبة صغيرة وعاد إلى غرفة النوم.

في الوقت الذي كانت فيه مارسيا قد قامت عن السرير ووضعت ليزيت في مكانها ورأسها على الوسادة. وكانت تقف على الأرض قرب السرير ومنحنية فوق الطفلة الصغيرة حين دخل الدوق.

ولدى رؤيته إياها في هذا المشهد، عاد إلى ذهنه صورة رسام شهير اسمها «الفتاة والطفل». فقال: «ها هي حقيبتك، وأنا واثق، لمعرفتي بجاك، ان ما من شيء قد نسيه.»

«أرجوك أشكره نيابة عني. وأنا ممتنة لك كثيراً، لأنني سأتمكن من ارتداء ثياب تخفف عني الحرارة.»

وبعد أن خرج الدوق وأغلق الباب، فتحت مارسيا الحقيبة، واكتشفت أن جاك قد أحضر لها واحد من أثواب نومها المفضلين وآخر من الساتان الأبيض مزركشاً بقطع من المخمل الأزرق السماوي.

ورغم أنها تحب هذا الثوب إلا أنها لم تكن تتوقع أن ترتديه في كوخ فلاح. وإضافة إلى ثوب النوم، أحضر لها جاك فرشاة شعرها، ومشط، ومرآة صغيرة التي يسهل استعمالها أكثر من المرآة المعلقة على الحائط فوق طاولة الزينة.

فأسدلت مارسيا شعرها وسرحته إلى أن عاد بريقه إليه، وقد كان منسدلاً على ظهرها وصولاً إلى خصرها.

أغلقت مارسيا بعد ذلك الحقيبة بعد ما أخرجت منها حذاء بلا كعب. ولقد أدهشها أن تجد في الحقيبة أيضاً الكتاب





الذي كانت قد بدأت بقراءته والذي كان موضوعاً قرب طاولة سريرها.

فقالت في نفسها ان قراءتها للكتاب ستساعدها على قضاء ساعتين أو ثلاثة قبل أن تنام. وفيما هي تحدث نفسها، سمعت أحداً يطرق على الباب، ظناً منها أنه بيار، قالت ادخل، إلا أن من يقف خلف الباب كان الدوق. فقالت: «لقد ظننت أنك ذهبت.»

«على العكس، أنا أنتظرك لنتناول العشاء معاً.»

فحدقت به وسألته: «العشاء؟»

«لا يبدو من اللائق أن أتركك، وأنا مضيفك، دون أي طعام تأكلينه.»



«أعتقد أن هناك بعض الطعام في المطبخ.»

«الكمية غير كافية. لذلك أحضر لنا جاك ما اعتقد أننا سنتمتع بأكله نحن الاثنين.»

ضحكت مارسيا وقالت: «لا يمكنني أن أصدق ذلك! ماذا سيقولون في القصر عندما لا تشاركهم العشاء؟»

«لقد طلبت من جاك أن يخبرهم أنني سأتناول العشاء مع بعض الأصدقاء، وانك ذهبت إلى منزلهم للمساعدة لأن اكيلين بحاجة لتغيير إحدى الحدوات، وإلى أن يجهز الحداد واحدة، فإنك ستتناولين العشاء هناك أيضاً.»

فسألت وهي تضحك: «كيف يمكنك أن تؤلف كل تلك الأكاذيب؟»

«الحاجة أم الاختراع! هيا بنا إلى الصالون، ودعيني أخبرك، إن كان يهمك الأمر، أن بيار يلتهم الأكل بشراهة

في المطبخ! وإن لم تسرعي، فإنه لن يبقى لنا ما نأكله!»

فضحكت مجدداً ثم نظرت بقلق نحو ليزيت.

«سنترك الباب مفتوحاً لنتمكن من رؤيتها، في حال استعادت وعيها، أو تحركت.»

ابتسمت مارسيا للدوق قبل أن تتقدمه إلى الصالون الصغير الذي هو عبارة عن غرفة صغيرة ذو أثاث بسيط لكن جد نظيف.

وفيما كان مارسيا وآرموند يتحدثان، قام جاك بتحضير طاولة في وسط الغرفة وغطاها بمفرش نظيف مخرم ووضع عليها شمعدانان فضيان أحضرهما معه من القصر.

فجلست مارسيا إلى الطاولة وجلس الدوق في الجهة المقابلة لها، وكان أول قسم من وجبة العشاء موضوعة على الطاولة والتي هي عبارة عن طبق منطقة الدوردون التقليدي والمسمى شرحات اللحم اللذيذة مع الأعشاب، هذا إضافة إلى العصير.

وبعد أن رشفت مارسيا قليلاً من العصير، قالت: «أتمنى ألا يكون لأحد من أهل القصر علم بمكان وجودنا في هذه اللحظات. هل يمكن لك أن تتخيل كم ستكون دهشتهم!»

«إننا نتناول الطعام ومعنا المرافقين.» سكت قليلاً ثم تابع بصوت هادىء: «أنت تبدين جميلة بشعرك المنسدل وثوبك الأزرق.»

«إنه غير مرتب، وأنت تعرف تماماً أن الليدي ترتدي مثل هذا الثوب في المساء.»

«أنت تجعلين ذلك يبدو غير لائق!»





فتورد خدا مارسيا مدركة أنها قد تكلمت بالطريقة التي تتحدث فيها إلى والدها.

لقد نسيت أن الدوق هو شاب، وأنه عليها أن تتحدث إليه بطريقة رسمية.

«يعجبني وجهك المضرج احمراراً. وهذا قلما أراه على وجه أي من وجوه السيدات الفرنسيات.»

وظن أن كلامه هذا لا يفاجىء سامعه، لأن السيدات اللواتي عرفهن، مثل الماركيزة، قد تجاوزن زمن الحياء.

قالت مستدركة: «بما اننا معاً في مكان وظروف دقيقة، اقترح أن نتحدث عن الخيول، والذي هو دائماً موضوع آمن يبعد الخطر.»

«بل أنا أفضل، وفي هذه اللحظة، أن أتحدث عنك! فأنا مهتم جداً بخصوص ما أخبرتني عن كونك طفلة وحيدة. فيما كنت بانتظارك وأنت تبدلين ملابسك، كنت أفكر كم يعني لي القصر والأملاك وحتى منذ زمن بعيد. وكم هو مهم أو أورث كل ذلك لابني، أو ربما لأبنائي.»

صفقت مارسيا فرحاً وقالت: «هذا ما يود الجميع سماعه، ولن يكون هناك من هو أكثر سروراً من عمتك.»

«المشكلة هي أنه، وكما قلت، لكي أنجب الأطفال يجب أن يكون هناك حب، ولكي يكون البيت المكان المناسب لتربيتهم، سواء كان قصراً أو كوخاً، يجب على الأب والأم أن يحبا بعضهما البعض.»

«أنت محق تماماً في ما تقول. فأنا مقتنعة بأن الأولاد

وليدو الحب هم أذكى وبالطبع أكثر سعادة من هؤلاء وليدو الزواج التقليدي.»

هز الدوق رأسه موافقاً وتابعت: «إن قرأت التاريخ، فسترى أن الأطفال وليدو الحب أذكى بكثير من هؤلاء وليدو الزواج المدبر، خصوصاً أولاد العائلات العريقة.»

«هذا صحيح. ويمكنني أن أثبت لك بأمثلة عديدة أن وليدو الحب لملك فرنسي قد أبدعوا في كل مجال أكثر من أطفاله وليدو الزواج المدبر من امرأة لا يكن لها أي حب أو عاطفة.»

«ولدينا مثال مطابق في التاريخ الإنكليزي.»

وسردت له العديد من القصص المتعلقة بوليدو الحب في كثير من العائلات العريقة، ثم بادلها القصص عن ملوك فرنسيين مماثلة للتي روتها، فأدهشها ذلك.

وقد تبع انتهائهم من طبق الدوردون التقليدي تقديم عدد من المأكولات التي حضرها جاك بنفسه.

كان الاثنان منهمكين في الحديث لدرجة أنهما أكلا دون انتباه إلى بقية انواع المأكولات المقدمة لهما.

أخيراً، وبعد أن شربا القهوة، قام الدوق بتردد وقال: «والآن، أعتقد أنه علي أن أرجع إلى القصر. سأطلع والدك على حقيقة ما حدث، لكني أعتقد أنه ليس من الصواب أن أطلع عمتي أو أي شخص آخر على الأمر.»

«آه، أرجوك... احفظ هذا سراً! فأنت تعرف بأنهم





سيفكرون في ذلك، مما سيجعل الأمر محرجاً جداً بالنسبة لي.»

«سأفعل ما بوسعي، وبالطبع سأعود غداً في الصباح الباكر لأقلك بعد أن تكون قد عادت والدة الطفلة.»

ثم مشى بضعة خطوات نحو الباب قبل أن يقول:

«عمت مساءاً، مارسيا. لقد استمتعت بالعشاء معك أكثر مما يمكنني وصفه بالكلام.»

«وأنا وجدته رائعاً. عمت مساءاً، سيدي، و... شكراً لك.»

ثم توجه بعد ذلك إلى المطبخ ليرى ان كان جاك قد أتم عمله.

وأسرعت مارسيا إلى غرفة النوم لتطمئن على ليزيت، فإذا بها على حالها، فحملتها مارسيا برفق ووضعتها في السرير كما يجب ووضعت الغطاء عليها بعد أن تأكدت من نظافته. وقبل أن تأوي إلى الفراش، توجهت نحو النافذة لتفتحها قليلاً، وكان جاك قد أضاء لها شمعتين، ووضعهما على طاولة الزينة، وقد كانتا تشبهان الشمعتين اللتين كانتا موضوعتين على طاولة غرفة الطعام. وهي واثقة من أن قيمتها لا يمكن لفلاح أن يدفعها. عندئذ رأت شيئاً موضوعاً على طاولة الزينة ولم تلحظ وجوده من قبل. انه مسدس. وتساءلت عن سبب وضع جاك له، وعندما رفعته وجدت تحته ورقة كتب فيها:

«آنستي:

لقد سمعت اليوم أن هناك كلب موبوء في الجوار. وقد

اخبرني مساعد سيدي إيرل غريتسوود انك هدافة ماهرة. لذلك اترك لك هذا في حال حدوث أي طارىء.

بكل احترام

جاك.»

فابتسمت مارسيا قائلة في نفسها انه رجل ذكي جداً. فهي تعلم إلى أي حد يكون الكلب الموبوء مؤذي وخطر. إلا أنها تمنت في الوقت نفسه ألا تضطر لقتله.

ثم سحبت إحدى الستائر ونظرت نحو السماء التي بدت بعيدة مسافة طويلة بسبب وجود المرتفعات الصخرية خلف الكوخ.

وفيما كانت تحدق في الأفق البعيد، رأت أن ستار المساء قد بدأ ينسدل وأن النجوم بدأت بالظهور والتلألؤ في السماء. يا له من منظر رائع. ففكرت في أن تقف عند مدخل البيت الأمامي وتنظر إلى المنخفض تحت ضوء القمر. فهي متأكدة من رحيل جاك لأنها سمعت صوت العربة تبتعد. ومتأكدة كذلك من أن الدوق قد عاد إلى القصر على ظهر أكيلين، وفي مخيلتها صورته الجميلة.

قالت في نفسها: «كان لطفاً منه أن يتناول العشاء معي، واستمتعت كثيراً بالحديث معه.» وكل ما تمنته هو الا يكون قد شعر بالملل. إلا أن عكس ذلك قد كان واضحاً تماماً.

ثم أسدلت الستائر وأطفأت إحدى الشمعتين. وبينما كانت تستلقي على السرير، فتح بابها فجأة وبقوة، وإذا بها



تسمع صوتاً يصرخ قائلاً: «آنستي! آنستي!»

إنه بيار. فأضاءت الشمعة وهي تقول: «ما الأمر، يا بيار؟ ماذا جرى؟»

«لقد خطفوا سيدي الدوق، يا آنستي! لقد احتجزه؟ ثلاثة رجال في مغارة.»

«أنا لا أفهم ماذا تقول!»

«لقد قيدوه بالحبل، ورغم مقاومته لهم، إلا أنهم تغلبوا عليه لأن قوتهم تفوق قوته. ثم نزعوا قبعته يا آنستي. لكنهم احتجزوه في مغارة كبيرة لا يعرف أحد عنها شيئاً سوى صديقي، وأنا!»

فأدركت مارسيا أن ساردوس هو الفاعل. وتسلل إلى داخلها الرعب لمجرد احتمال أن يقتل الدوق.

# الفصل السابع

«ماذا... يمكننا أن... نفعل؟»

«سأرشدك إلى المكان حيث احتجزوه دون أن يرونا. تعالي معي، يا آنستي.»

ألقت مارسيا نظرة سريعة على ليزيت التي كانت لا تزال مستلقية دون حراك. ثم عادت نحو الباب حيث كان بيار ينتظرها.

فتذكرت المسدس الذي وضعه لها جان على طاولة الزينة فعادت وأخذته لتدرك أن بيار قد سبقها بعد أن دخل المطبخ وحمل شيء ما في يديه وقال: «هذا مصباح يد، يا آنستي.» انه مصباح بسيط صنع من شمعة ومرطبان مربى. إلا أنها اعتبرته مساعداً لهما على رؤية الطريق في حال توجها إلى المغارة.

لكنها كانت تشعر بالخوف والقلق لأن ساردوس قد احتجز الدوق سجيناً لديه. وفي حال احتجزها هي وبيار فإنه اما سيقتلهما أيضاً، أو يستخدمهما كرهائن.

رغم كل شيء، لم يكن هناك من مجال للنقاش. فتبعت بيار إلى خارج المنزل وعبر الحديقة الصغيرة. غير أن الظلام لم يكن حالكاً بسبب ضوء القمر والنجوم المتلألئة في السماء السوداء.





انعطف بيار إلى اليمين وركض حيث الصخور تنخفض باتجاه الحقل.

لم يكن لدى مارسيا وقت لتفكر، كل ما كان يهمها هو أن تتبع بيار حيث يتوجه. ولتتمكن من ذلك كانت ترفع ثوبها عن الأرض لتتمكن من الركض بسرعة أكبر.

ومن حسن حظها أنها كانت تنتعل حذاءاً بلا كعب. كان اكيلين لا يزال في الحقل. إذاً، لا بد وأن يكون ساردوس وزملاؤه قد اختطفوه قبل أن يتمكن من الوصول إلى حصانه.

ثم توقف بيار فجأة، وعندما اقتربت منه مارسيا، همس قائلاً: «ها هي المغارة هناك حيث يحتجز الدوق!» فأشار إليها دون أن تستطيع رؤية مدخل المغارة بوضوح. ولو حصل ذلك لكانت اقتربت من المكان وحاولت أن تسمع أي صوت قد يصدر عنهم.

لكن بيار أمسك بذراعها ومنعها من التقدم. فابتعدا مسافة ثلاثة ياردات، ثم توقف بيار ثانية.

فإذا بمارسيا تتمكن الآن من رؤية فتحة صغيرة في الصخور قد بدت وكأنها قد استعملت من قبل حيوان.

أخرج بيار المصباح من سترته حيث كان يخبئه ثم قال بهمس شديد: «اتبعيني!»

زحف باتجاه الفتحة على يديه ورجليه، وفعلت مارسيا، التي كانت تشعر بثيابها تعيق حركتها، مثله.

وما أراحها هو أن بيار انتصب واقفاً بعد زحفهما لمسافة قصيرة.

حمل بيار مصباحه ليتسنى لها أن ترى أنهم في داخل مكان صغير وفارغ وأن السقف من فوقهم صخري، ومرتفع إلى حد يسمح لهم بأن يقفوا بكل ارتياح.

ثم وضع إصبعه على فمه ليشير لها أن تلتزم الصمت، لكن مارسيا كانت تعي أنهما لو تكلما، فإن صدى صوتهما سيتردد في المكان وينبه ساردوس.

تقدم بيار قبلها ببطء لأن الأرض غير مستوية. ومع ضوء المصباح المتسلل إلى الداخل تمكنت مارسيا من رؤية الرواسب الكلسية المتدلية من السقف والناتئة من الأرض.

ثم تقدم الاثنان ليصبحان ليس في مغارة وحسب، بل في ممر ضيق جداً. وكان بيار لا يزال يحمل مصباحه حتى تتمكن مارسيا من السير وراءه.

وكان يخبيء وميض الضوء في الأمام بسترته، وبعد اجتيازهما مسافة معينة، سمعت مارسيا صوتاً هامساً إلا أن صدى هذا الصوت كان يتردد وكأنه يصدر في كوكب آخر.

لكن الاثنين تابعا تقدمهما، رغم تعثرهما خلال سيرهما على تلك الأرض الوعرة. لهذا السبب حاولت مارسيا أن تتفادى ذلك باستنادها إلى الحائط الذي كان بارداً جداً. وأدركت أنهما كلما نخلا الى عمق أكبر، كلما ازدادت البرودة.

وفجأة سمعت صوت ساردوس بوضوح يقول بعصبية: «احكموا ربطه كي لا يتمكن من الهرب».



فتوقف بيار حين سمع صوت ساردوس، ثم عاد يتقدم ببطء شديد وعلى أطراف أصابعه. وخلال ذلك كان يسمع صوت أحد ما يتم جرّه على الأرض الوعرة.

وبعد أن انعطفت مارسيا إلى إحدى الجهتين، تمكنت من رؤية داخل المغارة المدهش عبر تشقق كبير في الصخر. إلا أنه كان عالياً لدرجة أن يستحيل في هذه الظلمة الحالكة رؤية ما في الأعلى.

وما رأته هو عبارة عن أعمدة ضخمة من الصواعد الكلسية التي كانت تبرق لانعكاس ضوء مصباح كبير عليها.

وكان هذا المصباح موضوع على صخرة مسطحة وبحجم طاولة، وقوة إنارته أوضحت صورة الأشخاص الأربعة هناك.

وإلى يسارها، كان يمكنها رؤية ساردوس، وبحسب رأيها، غاضب جداً وشرس.

وأمامه مباشرة، يقف الدوق دون قبعته، وعلى خده جرح كبير، فرجحت أن يكون نتيجة ضربة تلقاها من الرجال، وسترته معلقة على أحد كتفيه، والجزء الأعلى من جسمه مقيد بحبل.

إلى جانبه ظهر رجل ضخم وملامح القسوة ترتسم على وجهه. ولم تكن لتتفاجأ ان قيل لها انه ملاكم.

ويظهر أيضاً رجل آخر قصير ونحيل إلى جانب الرجل الذي كان يحرس الدوق. أما بالنسبة

لهذا الرجل، فرأسه يعلوه الشيب. تبدو عليه علامات المكر جلية مما جعل مارسيا تشعر بأنه لا يمكن لأي شخص أن يثق به.

خلال مراقبتها لهم، رأت الرجل الضخم يضع الدوق عند الصخرة الموضوع عليها المصباح. كما رأت الرجل الثالث يخرج بعض الأوراق من جيبه، ليضعها بعد ذلك على الصخرة المنبسطة أمامه.

ثم سمعت الدوق يقول: «أعتقد يا ساردوس، أنك تدرك بشاعة ما تقوم به، ويحزنني جداً الطريقة التي تعاملني بها.»

«أحزن كما شئت. لكن ما يحزنني أنا هو بخلك، وأنا لا أنوي أن أدخل السجن حين يمكنني، وبكل سهولة، أن أسدد ديوني.»

«كما فعلت لك في السابق.»

«والذي لن يكون هناك من ضرورة لأن تفعل ذلك في المستقبل!»

«إذن أنت تنوي قتلي.»

«سيكون هذا منوط بك. ولك الاختيار.»

عم الصمت المكان، وانتظر الدوق مراقباً إياه، ولرؤيتها آرموند أمامها يتصرف بهذه الطريقة، قالت مارسيا في نفسها إنه شجاع ورابط الجأش. فهو يعي مستواه الاجتماعي.

ثم ضحك ساردوس فجأة وقال: «إن ذلك يقلب المقاييس، أليس كذلك يا خالي آرموند، أن تملي علي ما يجب فعله، أكثر من تلقيك الأمر مني.»





«أنا بانتظار أن تصرح عما تريد.»

«حسناً، ستسمع ما أريد ولهذا السبب أنا أحضرتك إلى هذا المكان الجميل.»

«لم يكن عندي أدنى فكرة أنه موجود.»

«يمكنك أن تشكر آلبرت لإرشادنا إلى المكان. فهو عندما أراني إياه، سررت لأنه المكان الذي أريده بالضبط.»

«لتحتجزني في داخله رهينة؟»

«أكرر، هذا منوط بك. لكن دعني أولاً أعرفك بأصدقائي آلبرت، وقد لا يفاجئك أن تعرف أنه الرجل الأقوى في بارجاريك، وأنه فاز في عدة مباريات في الملاكمة.»

ثم أطلق ضحكة شريرة أخرى وتابع قائلاً: «أنصحك بألا تقاومه وإلا ستكون خاسراً.»

لم يعلق الدوق على ما سمعه، وتعجبت مارسيا لشدة هدوء أعصابه. وفي نفس الوقت كانت ترى أحد عروقه ناتيء عند رقبته، فأدركت أنه غاضب جداً.

قال ساردوس: «وهذا صديقي الآخر، سيد لوشيز، والذي هو، كما ترى، محامي. ولديه بعض الأوراق هنا كي توقع عليها، وستكون في غاية الحماقة ان لم توقعها.»

«هل لي أن أعلم مضمون هذه الأوراق؟»

«انها تصرح انني وريثك إن لم تنجب وريثاً.» ثم تابع بعصبية أكبر: «لكنك، وقبل ذلك، ستمنحني ما قدره مليوني فرنك وتسجل باسمي ما تملكه في بارجاريك.»

وفيما هي تسمع ما يدور من حديث، تذكرت مارسيا أن بارجاريك هي بلدة كبيرة تقع على بعد بضعة أميال من القصر.

وإن قدر الدوق قيمة ما يجنيه من إيجارات في تلك البلدة، فإنها ستساوي قيمة ما ينفقه على العائلة والقصر.

لذلك لم تفاجأ حين رفض الدوق وقال: «وإن رفضت أن أوقع على هذه الورقة الخطيرة؟»

«عندها، يا خالي العزيز، سأضطر وبأسى شديد أن أتركك هنا في هذا المكان الجميل والبارد. اذ لم يكتشف هذا المكان سوى آلبرت الذكي، وجمع بعض الصخور عند مدخل المغارة، سيجعل المكان غير معروف أو مكتشف لبضع سنين أخرى قد مضى مثلها.»

ثم عم الصمت إلى أن توقف تردد صدى صوته.

قال آرموند: «إذاً، كانت عمتي الكونتيسة محقة عندما قالت إنك تنوي قتلي!»

سأل بغضب: «ولماذا قالت هذا؟»

«لقد سمعت أنك كنت تؤكد لدائنيك في باريس أن موتي سيكون قريب جداً. لذلك، فإنني ان اختفيت الآن دون أي سبب، فسيكون هناك عدد كبير من الأشخاص يسألونك عن المرة الأخيرة التي رأيتني فيها.»

فقالت مارسيا في نفسها ان عمل الدوق هذا حانقاً. واستطاعت أن ترى ملامح عدم الرضى على وجهه ساردوس.

ثم قال: «وعلى الرغم من ذلك، لن يكون هناك من ضرورة



لأي مخاطر. ستوقع على هذه الأوراق القانونية ومن ثم يسجلهم السيد لوشيز رسمياً، حتى لا يتسنى لك الرجوع في كلامك.»

قال آرموند: «حسناً، لكنني واثق من أنك تعلم عدم قدرتي على توقيع الأوراق وأنا مقيد هكذا. فأنا لا أستطيع استعمال يداي.»

فأخرج ساردوس مسدساً من جيبه ووجهه نحو الدوق وقال: «فك يديه، يا آلبرت! وتأكد أيضاً من جهوزية مسدسك. ان حاول الهرب، اقتله!»

بدأ الرجل الضخم الذي يقف إلى جانب الدوق بفك قيده، وخشيت مارسيا أن يحاول الدوق مقاومة هذا الرجل ليحرر نفسه لأنها تعرف أن النتيجة ستكون بمثابة كارثة. إذ أن هناك مسدسان مصوبان نحوه.

ولما كانت تدرك أن باستطاعتها قتل واحد منهم، إلا أنها كانت واثقة من أن ساردوس أو آلبرت سيقتل الدوق.

وقع الحبل على الأرض وحرك الدوق يديه وكأنه يعيد جريان الدم في شرايينهما.

فسأل ساردوس المحامي: «هل الأوراق جاهزة؟»

«إنها هنا، وموضوعة بالترتيب تماماً كما أمرت، يا سيدي.»

قالت مارسيا في نفسها لا بد وأن هذا المحامي يجني الكثير من المال، وأنه سيتمتع بمنظر الدوق في هذا الوضع المهين.

«تقدم إلى هنا، يا خالي آرموند. ولا تتحاذق فتموت!»

تقدم آرموند خطوة واحدة. ولدى فعله ذلك، رفعت مارسيا مسدسها وأطلقت رصاصة باتجاه المصباح، مما أصدر صدى قوياً في المكان. ثم أسرعت نحو الدوق وأمسكت بيده وسحبته إلى حيث كانت تقف بينما كان ساردوس يصرخ بجنون.

دون أي كلام، ظلت تجره معها، فادرك أنه يستطيع الخروج من الهوة رغم كون ذلك صعباً ومؤلماً إلى حد ما.

وعندما أصبحا خارج المغارة، همست مارسيا: «سيخرجنا بيار من هنا.»

وتابع الصبي تصرفه بذكاء، فعاد وغطا المصباح بسترته كما فعل من قبل.

فلم يتسلل من ضوء المصباح إلا ما يمكن مارسيا والدوق من السير خلفه. وخلفهم تماماً، كان هناك صوت ساردوس يقول: «اقتله! اقتله! إنه يهرب!»

ثم سمع إطلاق نار وصرخة ألم، ثم سمع صدى الطلقة. فظنت مارسيا أنها قد أصابت ألبرت ليتكرر بعد ذلك سماع صوت طلقات نارية ثم صوت انهيار صخور على الأرض. قد يكون ذلك إما الصواعد أو الهوابط الكلسية تنهار داخل المغارة.

إلا أن كل ما أرادته مارسيا هو أن تنقذ الدوق وتبعده عن هذا المكان في أسرع وقت ممكن، لخوفها أن يلحق به ساردوس ويختطفه ثانية.

تقدم بيار بسرعة.



وعندما ابتعدوا عن المغارة مسافة بعيدة، رفع الصبي مصباحه، ليتمكن الاثنان من اتباع خطاه بسهولة أكبر.

وقد استغرقهم دقائق قليلة. مرت بالنسبة إلى مارسيا وكأنها ساعات، قبل أن يصلوا إلى المدخل.

فجثا بيار على ركبتيه وانتظر الدوق حتى تتقدمه مارسيا ثم فعل مثلهما.

لقد كان الجو دافئاً جداً في الخارج. وساعدهم في الخروج من المنخفض الصخري ضوء القمر الساطع. وعندما وصلوا إلى منطقة آمنة قالت مارسيا: «لا بد لك أن تبتعد عن هنا فوراً! أكيلين بانتظارك!»

«واتركك هنا؟»

«إنهم لا يهتمون لأمري.»

«لكن قد يصبحون كذلك.»

فإذا ببيار الذي كان يطفىء مصباحه يصرخ: «إنها ماما، لقد عادت ماما!»

ودون أن ينتظر أن يعلق أحد منهما، توجه نحوها. فنظرت مارسيا إلى الكوخ لترى عربة تقف أمامه.

إلا أنها لا تشبه عربة آرموند، بل كانت أشبه بالعربة التي ينقلون بها البضائع في السوق.

ثم قالت: «إن عادت والدة ليزيت، فسأعود معك إلى القصر، يا سيدي.»

ولم تنتظر حتى يرد الدوق على ما قالته، بل لحقت بيار.

فإذا بوالدته المتعبة أصبحت داخل البيت، وبيار

يحضنها، ويقول: «لقد عدت، يا ماما! لقد عدت! لقد حصلت أمور رهيبة!»

«ماذا جرى؟»

ونظرت إلى مارسيا التي تقدمت عبر الممر ودخلت إلى المنزل. وقالت: «لقد تعرضت ليزيت لحادث فيما كنت أركب أحد خيول سيدي الدوق وتقفزت من فوق حاجز قرب منزلكم دون أن أنتبه إلى وجود ليزيت التي كانت تقطف الأزهار عند الجهة الأخرى منه.»

فإذا بالسيدة تصاب بالذعر ويشحب وجهها، فتابعت مارسيا بسرعة: «إنها فاقدة الوعي، لكننا نظن أنه ارتجاج بسيط في الدماغ. إنها في غرفة النوم.»

وبينما كانت مارسيا تتكلم، دخلت والدة ليزيت إلى غرفة النوم، وهرعت نحو السرير وانحنت فوق طفلتها التي صرخت: «ماما! ماما! لقد تأذيت!»

فجلست الأم على السرير ضمتها إلى صدرها بقوة.

قالت مارسيا بتعجب: «لقد استعادت وعيها! وتكلمت. هذا يعني أن دماغها لم يتأذ آه، أنا سعيدة... سعيدة... جداً!»

دخل الدوق إلى الغرفة ورأى الدموع تترقرق في عينيها. ونظرت الأم التي كانت تحضن ليزيت إلى آرموند بدهشة. وما إن حاولت الوقوف حتى قال: «لا تتحركي، لا يسعني سوى أن أتأسف لحصول ذلك. وأن أقول لك بأنني مدين بالكثير لابنك بيار، الذي أنقذ حياتي.»



«بيار أنقذ حياتك، يا سيدي؟»

«ليس لدينا متسع من الوقت لنتحدث في هذا الموضوع الآن، لأنه علي أن أصطحب الليدي مارسيا، التي كانت تعتني بابنتك ليزيت، إلى القصر. وسآمر بك غداً. وأعدك بأنكم ستعيشون كلكم برفاهية أكبر لقاء ما فعله بيار لأجلي.»

وقد كانت مفاجأة الأم أقوى من أن تجعلها تقول أي شيء، فيما كانت ليزيت تهمس: «ماما! ماما!»

وجه الدوق كلامه الى مارسيا وقال: «هيا، علينا أن نرجع اكيلين إلى الإسطبل. وسيأتي جاك ليأخذ أغراضك غداً.»

مسحت مارسيا دموعها ودون أن تقول أي شيء، تركت الغرفة.

أما بيار، فقد كان يقف في الممر الصغير، فربت الدوق على كتفه وقال: «شكراً لك، بيار. لقد هربت من هؤلاء الرجال الذين لا يحق لهم أن يتصرفوا بتلك الطريقة. اعتني بوالدتك، واشتري ما تريد من القرية. وسنتكلم أنا وإياك لاحقاً في ما يتعلق بالمستقبل.»

وأعطى الصبي جنيهين ذهبيين بينما كان يحدثه.

فحدق بيار به دون أن يتفوه بأية كلمة.

مشى الدوق مرافقاً مارسيا إلى خارج المنزل، ثم عبر الحديقة نحو الحقل. صفّر بصوت هادىء، فإذا باكيلين يأتي إليه. قال: «كلما أسرعنا في الابتعاد من هنا، كلما كان

أفضل!» فصعد الاثنان على ظهر الحصان وأمسك العنان بيديه.

كانت مارسيا خائفة جداً، وبدأ خوفها يخف تدريجياً حتى اجتازا الكوخ والمغارة. ومرد خوفها هذا إلى توقعها أن ترى ساردوس وألبرت واقفين أمامها.

وهي تدرك أن الدوق كان يفكر بالأمر عينه. لذلك انطلق بسرعة أكبر دون أن يعدو عدواً لأنه يعرف أن ذلك سيكون متعباً بالنسبة لمارسيا.

فاستغربت لتصرفه هذا لأنه ما من رجل في مثل ظروفه يفكر بأي شخص آخر سوى بنفسه.

وبعد مضي بضع دقائق، أضحى الخطر بعيداً عنهما.

وإذا بهما ينطلقان الآن تحت ضوء القمر، حين بدأت صورة القصر تلوح من بعيد.

ما إن اقتربا من الإسطبل حتى انتبهت أن ارتدائها ثوب نومها سيتسبب بإثارة الثرثرة عليها.

فقالت: «لربما يجدر بي أن أسير المسافة المتبقية، إذ لو رآني أحدهم فسيعتقد أن ذلك غريباً.»

«أعرف ذلك.»

وبدل أن يذهب مباشرة إلى الإسطبل، سار بين الأشجار. الطريق التي أدت بهم إلى الحدائق في القسم الخلفي من القصر.

فأوقف أكيلين وقال لمارسيا:

«إن انتظرتني هنا، فسأدخلك عبر باب حيث لن يراك أحد لكن علي أولاً أن أودع الحصان في الإسطبل.»





«حسناً، سأنتظرك.»

فوقفت مارسيا جانباً وتوجه آرموند إلى الإصطبل.

وعندما وجدت نفسها تقف وحيدة، فكرت في انها كانت على يقين من أن ساردوس يبحث عنه عندما رآته يأتي من بعيد ومعه رجل آخر رجحت أن يكون ألبرت.

فسألت نفسها: متى سيفعل ما فعله ثانية؟ فهي تعلم أنه ما كان ليستسلم بسهولة لحاجته الماسة للمال.

ولأن الدوق لم يمت الليلة، إلا أنه من المحتمل أن يقتله قريباً. وتساءلت: كيف يمكن له أن يعيش في ظروف كهذه؟

كانت مستغرقة في التفكير حين وجدت الدوق يقف إلى جانبها دون أن تعي هي ذلك. قال: «لقد آوى أكيلين إلى مربضه، وكلما أسرعت في فعل هذا، كلما كان أفضل لك! فقد تلقيت الكثير من الصدمات التي تكفي ليوم واحد!»

«لقد كنت أفكر في بيار لأنه أنقذك لكن... أعتقد أنه... سيحاول... مجدداً؟»

«إذن، علينا أن نتحضر لذلك.»

ولاعتقاده أن مناقشة الأمر الآن لم تكن أمراً صائباً، اصطحب مارسيا عبر الحديقة متوجهاً نحو القصر الذي كان يخيم عليه الهدوء التام.

وتمنت مارسيا أن يكون الجميع نيام. وأن لا

تضطر لمواجهة الكونتيسة، أو حتى والدها.

فتح الدوق نافذة في الطابق الأرضي حيث كان القفل لم يتم إصلاحه بعد. فاستغربت لرؤيتها شيء مكسور في قصر كهذا. غير أنه في لحظات كهذه، كان أمراً إيجابياً.

ثم ساعدها الدوق لتقفز من فوق حافة النافذة، لتجد نفسها في غرفة صغيرة التي شكت في أن يكون أحد يشغرها.

وفي الممر، كان ضوء السلم مضاءاً، وفي الطابق الأول، كانت الأضواء كذلك. وعندما وصلا إلى غرفة نومها، أخذ آرموند إحدى الشموع، ليضيء الشمعة الموضوعة قرب سريرها. فأدركت أنه بما أن الشموع غير مضاءة، فهذا يعني أنهم لم يكونوا يتوقعون عودتها.

ثم تذكرت أن يكون جاك من أخبر الخادمة بأن ماريسيا ستمضي الليل عند الأصدقاء.

بعد أن أضاء الدوق ثلاثة شموع، أطفأ التي كان يحملها في يده.

قالت ماريسيا: «ها نحن في ديارنا و... أنت... بأمان! على الأقل في هذه اللحظات.»

«وينبغي أن أشكرك لانقاذك لي.»

«عليك أن تتوخى الحذر... كثيراً!»

ثم نظرت إليه بعينين قلقتين لخوفها من أن ساردوس قد يظهر ثانية.

فنظر إليها الدوق نظرة هادئة مليئة بالحب وكأنه





يشكرها على ما فعلت من أجله. ولم تعي ماريسيا ما معنى نظراته إلا حين سألها: «كيف أوجدت في قلبي هذا الإحساس؟»

ثم قال بعد لحظات صمت: «اذهبي إلى الفراش، الآن. وسنتحدث عن هذا غداً في الصباح.»

وقبل أن تتفوه بأية كلمة، خرج من الغرفة وأغلق الباب.

فبدأت ماريسيا تفكر فيما جرى في هذا اليوم، لتشعر أن العالم بأسره قد انقلب رأساً على عقب.

حتى انه لم يبق شيء كما هو سوى نبض قلبها.

عندما استيقظت ماريسيا في صباح اليوم التالي، كانت تشعر بأن هناك شخص ما في غرفتها.

فظنت أنه والدها، ولكن كائناً من كان، فقد فتح الستائر مما جعل أشعة الشمس تدخل إلى الغرفة.

إلا أنه لم يكن أحد سوى الدوق، الذي اقترب من سريرها وجلس مواجهاً لها بعد أن كان واقفاً عند النافذة.

«تبدين رائعة هذا الصباح!»

«ماذا... حصل؟ لماذا أنت... هنا؟»

فشعرت بإحساس مساء أمس يتسلل إلى داخلها مجدداً.

عادت وسألته بخوف: «هل عاد... ساردوس؟»

«إنه ليس ساردوس، الآن. لكنك تعلمين أنه سيحاول قتلي مجدداً.»

«آه... لا... لا!»

ثم جلست في سريرها، وشعرها الأشقر يغطي كتفيها.

قالت بقلق: «عليك أن تهرب بعيداً! عليك أن تكون... تحت الحراسة إلى أن... نتمكن من فعل شيء ما... بشأنه.»

«أنا لن أهرب، فقد قررت أن أقوم بشيء ما، وعليك مساعدتي.»

«أنت تعلم انني... سأساعدك... بأي طريقة... ماذا تريد؟»

«الطريقة الوحيدة التي أنقذ بها نفسي و، ما هو أهم، اسم العائلة والأملاك، هي أن أتزوج. لذلك أنا أطلب منك، يا مارسيا، مساعدتي على إنقاذ حياتي بقبولك الزواج مني هذا الصباح في القصر.»

ثم سكت، لكن مارسيا لم تستطع الكلام، كل ما حصل هو أن عينيها اتسعتا للمفاجأة. ثم تابع: «علي أن أجعلك لي الآن وهنا، وأي طفل ننجبه، سوف يكون الوريث الشرعي، عوضاً عن ساردوس.»

«كيف يمكنك... أن تقول لي... شيء كهذا؟»

«هذا ما لم أكن أتمنى أن أقوله، لكنني يائس. وإن كنت أرغب حقاً في انقاذ عائلتي، التي ستتشرد ان حل ساردوس مكاني، علي أن أفعل هذا. فأنا لدي التزامات تجاه أشخاص عديدين في الجوار.»

ثم نظر في عيني مارسيا قبل أن يتابع بهدوء: «قبل أن تجيبيني، يجب أن أخبرك إنني أحبك! هذا ما لم أقله لأي امرأة من قبل بتاتاً، ولم أكن أرغب من قبل بالزواج من أي امرأة، إن قبلت الزواج مني، يا مارسيا، أقسم أن هذا ما أريده من كل قلبي وروحي.»

تنهد بعمق ثم تابع: «هل ستنقذينني؟»





ابتسمت مارسيا وقالت: «ليس من الصعب... بالنسبة لي... أن أجيبك على... فأنا أحبك أيضاً! لقد أدركت ذلك أمس... حين عدنا... فقد كنت قلقة جداً عليك، واكتشفت سبب إسراعي لانقاذك. كل هذا لأنني وقعت في حبك!»

«إذن، هذا مشترك بيننا!»

«لقد أرسلت في طلب رجل الدين سلفاً. إن تم عقد قراننا عند الظهر، لن يعرف أحد بزفافنا إلا عندما تصبحين زوجتي.»

فصفقت مارسيا بيديها الاثنتين وقالت:

«هل يمكننا حقاً فعل هذا؟ فأنا لا أحتمل أن أراهم يتحدثون ويثرثرون! وسيعتقد أبي والكونتيسة أنهما من تسببا في زواجنا.»

«لن نصرح عن أي شيء يتعلق بساردوس إلا بعد أن تصبحين زوجتي، وأصبح عندها أنا مسؤولاً عما قد فعلنا أو لم نفعل. وبالطبع، لن أسمح لأي كان أن يثرثر عليك!»

ضحكت مارسيا وقالت: «هذا ما ستفعله أنت، وهو يروق لي! إنه ما أريد فعله. آه، يا آرموند، كيف يمكن لذلك أن يحصل بهذه... السرعة المذهلة؟»

قال: «هذا لا يدهشني. فقد أدركت حين دخلت إلى الصالون أنك لست فقط أجمل امرأة رأيتها. بل أيضاً أنك امرأة اتيت لتغيري حياتي، رغم معارضتي لذلك.»

«لقد كنت فظاً جداً!»

«هذا ما سأعوضه عليك في المستقبل.»

«سأذهب الآن لأقوم بالترتيبات اللازمة. إنه من غير الصواب أن يجدني أحد هنا إلى أن يصبح خاتم زواجنا في إصبعك.»

«أعتقد أنك قد تأخرت قليلاً في القلق على سمعتي، لكن أخبرني، أرجوك، قبل أن تذهب... ماذا ستفعل... بشأن هؤلاء... الأشرار؟»

«لدي إحساس انهم، وبعد إطلاق النار، قد احتجزوا في المغارة بسبب إنهيار الصخور عند المدخل. وإنهم لن يتمكنوا من الخروج إلا بمساعدة خارجية.»

«أتعتقد... ذلك... حقاً؟»

«أعتقد أنه يجب علي أن أتصرف كرجل نبيل وأنقذهم، قبل أن يموتوا من الجوع غير انني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الاحساس بان الإنسانية ستكون بخير ان ظلوا محتجزين في مكانهم.»

«أوافقك الرأي، لكنه في نفس الوقت... عمل غير صائب.»

«أعلم ذلك، وخلال وقت متأخر من بعد ظهر هذا اليوم سأرسل عدداً من رجالي ليتحققوا مما حصل.»

«لن... تذهب... معهم؟»

هز الدوق رأسه نفياً وقال. «لا أعتقد أن فعل ذلك من الصواب. بالاضافة إلى انني أريد أن أكون معك. وسيكون مدير أعمالي، والذي هو رجل ذكي جداً، المشرف على عملية الانقاذ.»

فارتعشت مارسيا لفكرة أن يكون ساردوس طليق مرة أخرى، لأنه قد يفكر بطرق أخرى يدمر بها حياة الدوق.





وكأنه يعرف ما تفكر به، نظر في عينيها وقال: «ساجعلك زوجتي، يا حبيبتي، وعندما نتزوج يمكنك الاهتمام بشؤوني كما فعلت سابقاً. لعلنا بذلك نبقى سالمين.»

«ضحكت مارسيا بعفوية وقالت: «أحبك! أحبك! لا اخالني أستطيع العيش... من دونك!»

أجابها: «إنه يوم زفافنا، ولا ينبغي لأي شيء أن يعكر صفونا. سأتركك الآن، يا زوجتي العزيزة التي ستكون، وعندما يصبح خاتمي في إصبعك، سأريك ما تعنين بالنسبة لي.»

نظرت إليه، فرأت مارسيا الحب في عينيه، وأدركت حينئذ أن هذا ما لطالما رغبت به وانتظرته.

عندما غادر الدوق الغرفة، قرعت مارسيا الجرس للخادمة. ولأنها لا ترغب في رؤية الكونتيسة أو أي شخص آخر من الموجودين، طلبت أن يقدم لها الفطور في غرفة نومها.

لقد كانت الساعة الحادية عشرة عندما قالت في نفسها ان عليها أن تبدل ثيابها حين دق جاك على باب غرفتها فقد أحضر لها وشاحاً مضى على وجود مع أفراد عائلة روس قرنين من الزمن.

وأعطاها أيضاً تاجاً نادراً رائعاً من زهر البرتقال مزيناً بالماس.

فخبأته مارسيا بعيداً عن نظر الخادمة حتى اللحظة الأخيرة.

ارتدت ثوباً من الشيفون الأبيض كانت قد ارتدته في

إحدى حفلات قصر باكينغهام، ثم وضعت الوشاح ليغطي رأسها وصولاً إلى شعرها ووضعت فوقه التاج. فأدركت عندما نظرت في المرآة أن الدوق لن يشعر بالخجل مع عروسه الإنكليزية.

فقالت مارسيا متوسلة الخادمة المذهولة: «أرجوك، لا تخبري أحداً عن هذا الأمر، إلا بعد أن نتزوج.»

«لا عليك، يا آنستي! هذا رائع جداً! لتهنئنا بحياتكما أنت وسيدي الدوق!»

«إننا سعيدين فعلاً.»

وبعد قليل دخل الدوق إلى الغرفة مرتدياً البذلة الرسمية للزفاف المتعارف عليها في فرنسا. كان يبدو رائعاً.

كانت سترته مزينة بالأوسمة وكان هناك وسام آخر معلق في شريط حول عنقه.

أخذت مارسيا تتقدم نحوه دون أن يتحرك هو ولو خطوة واحدة، بل وقف يراقبها إلى أن اقتربت منه، وقد ارتسمت على وجهه تعابير لم ترها مارسيا من قبل.

فأدركت أنه الحب، الحب الذي لطالما بحثت عنه، وهي تدرك أنه غير موجود إطلاقاً.

ثم فكرت بالحدائق حول القصر وقالت ان أطفالها وليدو الحب سوف يملؤون كل المكان.

وإن بقي الدوق حياً، فإنه لن يوجد بديل له أو لها في حياة كل منهما.

فقدم لها الدوق باقة صغيرة من الأزهار البيضاء قبل



ان يتوجهان حيث يجلس رجل الدين الذي سيعقد زواجهما.

لقد نزلا عبر السلم الجانبي الذي تسلقاه مساء أمس.

فرأت مارسيا أن القاعة مزينة بأزهار تتناسب مع باقة يدها. وشعرت كأنها تستطيع قراءة ما يدور في ذهن الدوق. وكأنه يقول لها عبر هذه الأزهار، ان كل ما يتمناه هو أن تكون زوجته.

ذلك لأنها تختلف عن أي امرأة أخرى عرفها من قبل.

بدأت المراسم وإذا ببيار يقف كواحد من الحضور. وما كان ليحدث لبيار أمراً أهم من هذا، إذ أن أهل القرية سيصابون بالذهول لدى معرفتهم حضوره مراسم زفاف الدوق.

إنه عمل رائع قام به أرموند، وصفة لطالما تمنت مارسيا أن تكون موجودة في شخصية زوجها. فتشابكت أصابعهما بقوة، وأدرك عندما نظر في عينيها أنها فهمت معنى ما فعل.

عند انتهاء عقد الزفاف انتصبا واقفين، وقبل أن يخرجا من القاعة، قال: «أخشى أننا الآن، يا غاليتي، أنه سيكون علينا مواجهة الناس. لكنني لا أريدك أن تحبطي.»

«ما من شيء يحبطني الآن بما انني أصبحت زوجتك. آه، يا عزيزي، هل تمنيت، كما فعلت أنا، أن نستمتع بشهر عسل طويل؟»

«بل تمنيت ألا أعاقب على خطاياي.»

ثم حدق بها للحظات قبل أن يقول: «أحبك وأريدك! دعينا نتلقى التهاني وننتهي من هذا الأمر حتى نتمكن من أن نكون بمفردنا بعد ذلك.»

«هذا... ما... أريده.»

فتوجه الاثنان عبر الممر الطويل المؤدي إلى القاعة المذهبة حيث يمكن لمارسيا سماع أصوات كثيرة، مما جعلها تنظر إليه بارتباك.

«لقد طلبت من الجميع انتظاري هنا لاعلاني أمامهم خبر ما.»

«أتمنى ألا يغضبوا لعدم حضورهم مراسم الزفاف.»

«ليغضبوا. ما من أحد يمكنه ازعاجنا الآن.»

تمنت مارسيا كي لا يظهر ساردوس إذ شعرت وكان آرموند كان يتحداه بقوله هذا.

كان مايجردومو منتظراً في الردهة كي يفتح باب القاعة.

قال الدوق: «أعلن نبأ وصولنا. كزوج وزوجة!»

فأعلن بصوت جهير: «سيدي الدوق وسيدتي دوقة روس.»

فعم الذهول المكان، لكن عندما رأوا مارسيا وآرموند مرتديان لباس الزفاف علت صيحات الإثارة والسرور.

لتكون الكونتيسة أول من يصل إليهم، ويقول بتعجب: «لقد تزوجتما! لا أصدق ذلك! كيف يمكنكما فعل ذلك دون أن تخبراني!»

قال الدوق: «إنها قصة طويلة تعرفينها لاحقاً.»





وركضت مارسيا إلى والدها الذي قال: «يا لها من مفاجأة!»

«أعرف ذلك، يا أبي. وسأطلعك على تفاصيل الأمر لاحقاً، لكن ليس هنا... ليس أمام كل هؤلاء الأشخاص.»

سر الإيرل كثيراً لأن ابنته نفذت رغبته لدرجة أنه لم يأبه لمعرفة التفاصيل.

كل ما أراده هو أن يأكل من حلوى المناسبة ويتمنى لهما السعادة.

وبدا أن الجميع أراد التعليق بطريقته إلى أن حان وقت تناول الغداء، في قاعة الولائم. ليتسلل الدوق ومارسيا خلسة إلى الطابق العلوي بعد ذلك.



عندما فتحت مارسيا غرفتها وجدتها، وفقاً لتعليمات الدوق، مزينة بالورود البيضاء. وكذلك غرفة الملابس خاصتها. غير أنها لم تر سوى زوجها فقط.

قال: «أحبك بجنون، ولا أصدق كيف حصل ذلك بهذه السرعة يا عزيزتي.»

«أنا أحبك... أحبك... كثيراً، وأنا أعلم ان الصدفة قد جمعتنا... سوية وجعلتنا نجد الحب... الذي كنا نبحث عنه.»

«هذا صحيح.»

وبالفعل، لم يبق سوى الحب... الحب... الحب!

•••

وبعد حلول المساء، كان الدوق يعطي أوامره لجاك أن يحضر له ولمارسيا العشاء في الطابق العلوي.

وقال: «سنهتم بأنفسنا، وأوضح للجميع أننا لا نرغب في أن يزعجنا أحد.»

«أمرك، سيدي.» وقال في نفسه انه لم يسبق له أن رأى الدوق سعيداً إلى هذه الدرجة ثم تابع: «لكن هناك شخص يود مقابلتك.»

فسأل آرموند بنفاد صبر: «من هو؟»

«إنه الشخص الذي أرسلته إلى المغارة. لقد عاد منذ حوالي النصف ساعة، وينتظر حتى يأتي ويتحدث إليك، يا سيدي، عندما تجد ذلك مناسباً.»

لم ير آرموند أي وقت مناسب لأي شيء سوى أن يكون مع مارسيا.

لكنه قال في نفسه انه ان لم يتحدث إلى هذا الشخص، فسيظل بعد ذلك قلق، وهو يريد معرفة التفاصيل. فقال: «أدخله إلي، يا جاك.» ثم عاد ودخل إلى الغرفة الأخرى حيث تجلس مارسيا، وقال لها: «لقد عاد الرجل، بعد أن نفّذ ما طلبت منه، أن ينقذ ساردوس ورفاقه.»

«آه، بالطبع... أنت محق... لكن، آه، يا عزيزي... أتعتقد أن ساردوس... قد يأتي... إلى هنا؟»

«أنا واثق من أنه لن يفعل شيئاً كهذا. إنه طليق، فقط لوقت محدد، لأنه سينسحب بعد ذلك كالحيوان ليلعق جراحه.»

«إذن دعنا نسمع ما هو الأسوأ، وأتمنى أن يكون قد ذهب إلى... باريس!»

طمأنها قائلاً: «حاولي ألا تقلقي، يا غاليتي.»





«أنا أفكر بك فقط.»

«هذا ما كنت سأقوله لك بالضبط.»

ثم دخل إلى غرفة أخرى وطلب من جاك أن يدخل الرجل.

ورغم كون هذا الرجل، والذي مضى على وجوده في خدمة الدوق حوالي العشر سنوات، كفوءاً وذكياً، إلا أنه قال بعد أن دخل إلى الغرفة: «أخشى أن لدي أخبار سيئة لك.»

«ماذا حصل؟»

«لقد كان الأمر كما توقعت أنت، يا سيدي. لقد إنهارت الصخورعند مدخل المغارة، مما منع الرجال في الداخل من الخروج. وقد استغرقنا بعض الوقت حتى تمكنامن إزاحة الصخور، وبعدما فعلنا هذا، وجدنا الرجال الثلاثة، بمن فيهم كونت دو تيفيير، تماماً كما توقعت.»

«هل كانوا أحياء؟»

«لا، سيدي!»

«أموات كلهم أموات؟»

«لقد كان الكونت والرجل الذي يبدو كالملاكم مقتولين بطلقات نارية.»

«طلقات نارية؟»

«يبدو لي أن أحدهما أطلق النار على الآخر. فكل منهما كان لا يزال يحمل مسدسه في يده.»

فانحبست أنفاس الدوق وسأل: «والرجل الثالث؟»

«إنه أيضاً ميت، يا سيدي، لكنني أعتقد بأنه مات من الخوف والبرد.»

فسكت الدوق وتأمل هذه النهاية لهؤلاء الرجال ووجدها موافقة تماماً لذلك الوضع المريب والرهيب، وظل الرجل ينتظر بصمت إلى أن قال الدوق: «أحضر جثة كونت دو تيفيير إلى مدفن القصر ورتب ما يلزم للجنازة بهدوء ودون أن يتسرب الخبر إلى الصحف إن أمكن.»

«حاضر، سيدي، أفهمك.»

«أما الرجلين الآخرين، فيجب دفنهما في مقبرة بارجاريك. أنا واثق من أن الطبيب سيسوي هذا الأمر.»

«سأهتم بذلك، سيدي الدوق.»

«شكراً لك. أنا ممتن لك جداً.»

فسكت الرجل لبرهة ثم قال: «اسمح لي أن أتمنى لسيدي الدوق وسيدتي الدوقة السعادة الكاملة. لقد أسعدنا جميعاً نبأ زواجكما!»

«لقد تم ذلك بهدوء. لكن يمكنك أن تخبر الجميع بأننا سنحتفل بالطريقة التقليدية، أي بإقامة مهرجان وإطلاق ألعاب نارية بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع بعد عودتنا من شهر العسل. أنا واثق من أنه يمكنك القيام بكل الترتيبات اللازمة.»

«بكل تأكيد، وسيكون أمراً رائعاً ينتظره الجميع.»

عاد الدوق إلى غرفته مجدداً، إلا أن مارسيا لم تكن جالسة، بل تقف منتظرة إياه قرب النافذة.

وما إن دخل الغرفة حتى هرعت إليه وسألته بلهفة:



«ماذا... حصل؟ هل كل شيء على ما يرام؟ آه، يا عزيزي... أنت لم تعد... في خطر؟»

راح يطمئنها قائلاً: «يمكننا أن نعيش حياتنا منذ الآن دون خوف ودون أن يحاول أحدهم إيذاءنا.»

«هل هذا... صحيح... حقاً؟ هل مات... ساردوس؟»

«أجل! لا بد وأن آلبرت قد أطلق النار عليه!»

«آه، آرموند... لقد كنت خائفة جداً... عليك!»

وإذا بالدموع تنهمر على خديها. إنها دموع الفرح، وأحس هو أيضاً برغبة في البكاء لشعوره بالامتنان. لأنه سيتمكن من أن يحب مارسيا بأي طريقة شاء دون أن يشعر بالخوف كلما فتح الباب.

وأدركا أخيراً، أن هذه اللحظات تشهد بداية حياتهما الجديدة. إنها الحياة التي سيكون فيها أطفالهم محاطون بالحب النقي والطاهر.

تمت